البشير الدامون

حكاية مغربية

رواية

المركز الثقافي العربي

SCANNED BY JAMAL HATMAL
أبو عبدو البغل

البشير الدامون

حكاية مغربية

الكتاب

حكاية مغربية

تأليف

البشير الدامون

الطبعة

الأولى، 2016

عدد الصفحات: 160

القياس: 14 × 21

الإيداع القانوني:

2016MO3840

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9981-72-029-9

جميع الحقوق محفوظة

© المركز الثقافي العربي

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء - المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 - 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت - لبنان

ص.ب: 5158 - 113 الحمراء

شارع جاندارك - بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 - 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

نُشر هذا الكتاب بدعم من

وزارة الثقافة

المملكة المغربية

وزارة الثقافة

ⵜⴰⵎⴰⵡⴰⵙⵜ ⵏ ⵜⵓⵙⵙⵏⴰ

البشير الدامون

حكاية مغربية

رواية

المركز الثقافي العربي

لم أكن قد أكملتُ ثماني عشرة سنة من عمري حين تطلّعت إلى نفسي في مرآة ممرّ العمارة. اكتشفتُ نضارة ترتسم على وجهي، وابتسامة توحي لي أنني لست عوداً جافاً، بلعتُ قلقي، ضغطتُ على جرس الباب.

جارتنا مليكة كانت تعيِّرني بأنني عود جاف، وتنعتني بأسماء العجفاء التي قاربت العشرين ولم تتزوج بعد.

بسبب عداوة استعرَت بينها وبين أمي إثر شجار في سوق حيّنا الشعبي، صارت المرأة تنتظرني عند خروجي من البيت، لتُمطِرني بوابل من اللّمز والتحقير، هادفة إثارة غضبي والتقليل من قيمتي وإحباطي. من شبّاك نافذة منزلها المقابل لمنزلنا بالحي القديم، كانت تتعمَّد أن تنتظرني حتى أمرّ لتهاجمني بكلامها الجارح، بين الشتم والشتم تصفُني بالعود الجاف الذي لم يَجد ولن يَجد مَن يسقيه.

- مَن المجنون الذي سيسقي عوداً جافاً؟ مَن سيقترب من أنثى عجفاء؟ أُخْت ذَكَرٍ سَرق جمال الإناث، وهو الآن يتعفَّن في السجن؟

لا أردّ على استفزازاتها. من مساوئي أنني لم أتعلم كيف أتقبَّل الإهانات بدمٍ بارد، كما أني لا أملك القوة والقدرة للتصدي للمرأة والردّ عليها، وسحلها على رصيف الدرب.

نحن متطرفون في حبّنا وكراهيتنا، متطرفون في حقدنا وخبثنا، والبعض منا يمتلك قدرة خبث مدمِّرة للآخر.

أمي كانت متهوّرة ومتشدّدة في ردّها. حين اشتكيتُ لها من الجارة، طلبَت مني أن أهاجمها في الشارع وأشبِعَها ضرباً. لم تكن تدري خطورة ما تطالبني به. للمرأة أبناء صعاليك حتماً سيكون ردّهم قاسياً. خوفاً من أن أتعرّض أو يتعرَّض أفراد عائلتي لمكروه، كنت أحاول أن أداري غضبي، وأتظاهر بعدم اهتمامي بما كانت تقذفني به. أدعو نفسي للهدوء. أبرِّر جُبني وعدم قدرتي على الردّ بأنّ جهل المرأة هو سبب خبثها، وبأنني متعلمة، وعليَّ أن أتعالى عن جهل بعض سكان الحي الذي كثيراً ما يكون سبب إثارة فتن وعراكات دامية.

هروباً من مثل هذه المنغّصات وما نعيشه من فقر في منزلنا، انغمستُ في الدراسة وانكببتُ على القراءة، معلِّقة الأمل على نجاحي حتى أتخرَّج وأحصل على وظيفة، تمكِّنني من تحسين حالتي وحالة عائلتي المادية ومن كراء منزل في حيّ لائق.

غير أنني لم أكن أستطيع التخلّص من الإحساس بالغُبن والدونية أمام ما ترميني به مليكة. حين تستعرُ نار غضبي، وأعتزم مواجهتها أجدُني أتراجع وأخمد حنقي داخلي ممّا يزيد من جفاف عودي. الردّ عليها سيؤجِّج غضبها فتسعى لإثارتي بكلام أكثر

سوقية للنيل مني، وقد تجرّ عليّ ويلات قد لا أحسب لها حساباً إنْ عَلِمَت بزيارتي لمنزل القاضي لأتشفَّع لأخي حسن.

* * *

لم يطُل انتظاري عند باب شقة القاضي حتى انفتح عن رجل أربعيني بقامة تميل إلى السمنة، وملامح يشي لونها بنوع من السمرة، وعينين غامضتين. لم أكن قد رأيته من قبل. ابتسم ودعاني إلى الدخول مرحِّباً. وأنا ألجُ اقترب مني، احتكّ بي وبصمَ قبلة على خدي. انزعجت.

انزعاجي طغى عليّ حين وجدتُ رجلاً وامرأة يقتعدان أريكة من الجلد في الصالون، يتناولان الشراب ويتضاحكان. فكّرت أن أهرب وأعود من حيث أتيت، لكن ليس كلّ ما نفكر فيه نقوم به. الضحكات المتهتّكة للمرأة تشي بأنها منتشية بفعل الشراب. دعتني للجلوس. أحسستُ بقرفٍ ممّا يحيط بي.

لم يدعني الرجل أمكث في امتعاضي طويلاً. مدَّ يده نحوي طالباً مني أن لا نزعج صديقيه. قادني إلى غرفة لا يوجد بها سوى سريرٍ بعدما دعا الجالسين إلى الاستمتاع بجلستهما. على السرير أمطَرني قبلات من فم تفوح منه رائحة الخمر وأنا أرغب في أن أمنعه، وفي أن أتكلم.

فاجأني بقوله إنّ نحافتي قد سحرته، وأنني أحمل بصمات الجمال الراقي، وأشبه عود ند تفوح منه رائحة الإغواء، ورائحة الجمال. لم أعرف كيف تكون رائحة الجمال. اكتشفتُ نفسي بأنني لست عوداً جافاً كما تعيِّرني جارتنا، بل إنني عود ندّ يُشتهى.

لستُ عوداً جافاً. استسلمتُ للرجل ولكلماته. مدَّدني على الفراش. عقد لساني لفترة. رغبة غريبة كانت تدعوني أن أدعه يفعل بي ما يريد، وإن تظاهرتُ بالرفض. لم يكن لديّ من سبب واضح لذلك. كانت أول مرة يغازلني فيها رجل، يعانقني، يقبّلني ويحضنني. تحت قوة بدنه كان جسدي النحيل يحاول أن ينفلت منه، وأنا أرغب أن أبقى تحت دفئه.

لم أكن أظنّ أنّ الرجل الذي بدا لي لطيفاً لحظة لقائي به يملك قدرة شلّ حركتي في وقت وجيز. لم يدُم الوقت الذي احتضنني فيه طويلاً. قبلاته التي بدَت لي دافئة سرعان ما توقفت. لفَّ يدي اليمنى خلفي، قبل أن يشلّ حركتي بوضع يدي اليسرى تحت وركي، آلمني بشكل كبير. أغلق فمي ليمنعني من أن أصرخ من الألم ومن هول المفاجأة، استغثتُ ممّا أنا فيه بنظرات مذعورة محاولة لفت انتباهه وعطفه، وضعفي مقابل قوته. فرَّق بين فخذي.

لم ينفع تمنعي، تكسَّرت الصيحة داخلي، أتبعتُها بأخرى أشدّ خرجت متقطعة حين تمكَّن من أن يفتح فخذي ومابين فخذي. ثبَّتني. انكمش الفستان تحتي، شلّ يدي من جديد، مزّق تباني وتمزَّقت معه قطعة لحم مني. اخترقني. ألمٌ مسح ومضة لذّة. تشبَّعت ألماً بين لذة طائشة لا زمن لها. بلَّل عمق فخذي. مددت يدي بسرعة إلى ما بين فخذي، بقع من الدم. صعقتُ ممّا حصل لي. ظللتُ مكوَّمة على نفسي وكلّ آلام الروح والجسد تتلاعب بي.

* * *

في الليل عدلَتْ نفسي من حالتها وأَسِرَتْني لتعاتبني.

لقد خرجْتِ لتعبثين بجسدك بذريعة حماية أخيك حسن. تحاولين أن تسكبي دمعك ندماً على زلّة جاهدتِ لتحقيقها. إنك ككلّ الإناث العابثات المتوهِّمات اللواتي ينشرن مفاتنهن على الرجال ليُسقِطنهم في شركهن. أمثالك يواجهن الدنيا ناثرات ما يملكن من أنوثة بين أفخاذ الرجال رغبة في إتيان لذة مدفونة في أعماقهن ثم يبكين كضحايا. رأيتِ أنها فرصة لتبحثين عن عبث جميل بمكنونات جسدك. تذكَّري، تذكري ما الذي قمتِ به قبل أن تخرجي للقاء الرجل.

ما تملكينه من ملابس لم يرُق لك، فاستعرتِ فستاناً من صديقتك. تعطَّرت، ليس من عادتك أن تتعطري، غيَّرت حمالة النهدين وتبانك بآخرين جديدين...

وجدتني أقطع استرسال نفسي وأعلق: حين أصررتُ أن أقتني تباناً جديداً عوض المتهالك لم أكن أقصد أن أعرض جسدي، بل أن أحسّ أنني حقاً أنثى. التبان النظيف يُشعرني بنقائي وأنوثتي.

غير عابئة بي واصلَتْ نفسي قذفي:

تطلَّعتِ إلى مفاتنك أمام المرآة وابتسمتِ حين تخيّلت الرجل يقضم منك. ألم تهيئي نفسك عروساً؟

نعم كنت قد هيَّأت نفسي. الفستان الأبيض الحريري المطرَّز بالورود البنيّة الفاتحة والبنفسجية كنت قد استعرته من لطيفة. صديقة درسَت معي في الثانوية، تقطن عائلتها بالقرب من دربنا. الفستان أنيق ويناسب قامتي. لطيفة حصلت عليه هدية من خطيبها

المهاجر بفرنسا. الرجل خطبها منذ سنة، أهداها الفستان وزجاجة عطر وفسحات في سيارته قبل أن يعود إلى فرنسا وتنقطع أخباره.

تَرَدَّدَتْ في البداية في إعارتي الفستان، رَغِبَتْ أن تقدِّم لي بدلة وردية اللون رأتها لائقة. أمام رجائي وإصراري وبعد تمنّع قصير قَبِلَت، فخطيبها لم يعُد يتصل بها منذ رحيله، ولم تعُد للفستان من قيمة بعدما عرفت أنّ الرجل تعمَّد هجرها، وأنه يعيش حياته بطريقة عادية في فرنسا. لكنها لم تقطع حبل الرجاء والانتظار، فقد يحنّ ويعود يوماً ما.

وافَقَتْ وهي توصيني أن أحافظ على نظافته وأتفادى تلطيخه وانكماش ثوبه. ظلَّت تربط حلمها بعودة خطيبها بالحفاظ على الفستان في حالة جيدة.

لكنني أظنّ أنّ لطيفة لم تقبل أن تعيرني فستانها إلّا بعدما عرفت وجهتي، وأنَّ ما أنا مُقدمة عليه يهمّ مصير أخي حسن. كانت معجَبَة به. اهتمامها الكبير به قبل اعتقاله، والسؤال عنه من حين إلى آخر بعد اعتقاله، يؤكِّد لي أنها كانت تعشقه في صمت. نحن فتيات ندفن عشقنا لشباب يقاربوننا سناً، ونرغب في الحصول على رجل ناضج قادر على الزواج ومواجهة نفقات الحياة الزوجية، وذلك حتى نهرب من سوء حالنا، ونهرب من ألسنة الجيران والأقارب التي تلدغنا بأننا عوانس، عوانس تلعننا الحياة وألسنة الناس وقلوب أهلنا.

في طريقي إلى منزل القاضي كنت أحمل هَمّ حسن، وهَمّ ما

أنا مُقدِمَة عليه وهَمّ الفستان. خوفي على الفستان كان يتجاوز ما يشغلني من قلقِ وُلوج بيتِ رجلٍ غريب لوحدي.

حين كنت أسفل جسد الرجل وهو يرفع حواشي الثوب ليصل إلى تباني وما تحته، خفتُ أن يتمزّق الفستان، حاولتُ جاهدة أن أبعد يديه مخافة من أن يتعرَّض الثوب لأذى، وكأنني بذلك ساعدته ليصل إلى ما يرغب فيه . عندما صرختُ عليه منبِّهة، كنت أرغب أن أثير انتباهه إلى التبان وما تحته وإلى الفستان. لم يتمزّق الفستان. تمزَّق ما هو أثمن بكثير من التبان والفستان.

* * *

ارتميتُ من السرير، وقفتُ لأصرخ في وجه القاضي مغتصبي. لم أملك الجرأة ولا القوة لأصفعه أو أكسر على رأسه أباجورة وُضِعَت بجانب السرير.

لم أكن تلك الفتاة القادرة على غرس مخالبها في وجهه. رميتُه بكلمات متقطعة ودموع الصدمة تخنقني، كلام إنسان مقهور تعجَز اللغة عن وصف قهره، قلت له إنّ الدماء على تباني وفخذي. أريته أصابعي وقد تلطخت بالقليل من الدم. بلع قلقه وهو يمرِّر يده على رأسه:

- إنها قطرات عادتك الشهرية.

جمعتُ ما تشظّى مني واستعدتُ السيطرة على نفسي وأنا أكاد أتهاوى. جلستُ على السرير وقلت له في خجل:

- لا ليست فترة حيضي.

احتقن وجهه واكتسى لوناً أحمر. أجابني وهو يدعك جبهته:

– لم يعُد زمن البكارة، معظم الفتيات تخلَّصن منها. إعادتها أمام زوج حريص عليها مسألة دراهم قليلة. تمتّعي بحياتك.

مددتُ نظراتي إلى فستان لطيفة. مرَّرتُ عليه يدي حتى أخلِّصه ممّا اعترى ثوبه من انكماش. خفتُ أن تعاتبني.

اندفعتُ خارج الغرفة. كان صالون المنزل فارغاً. المرأة فارعة القامة التي وجدتها تجالس رجلاً سمعتُ ضحكاتها المتهتكة متسرِّبة من الغرفة الأخرى. تذكَّرت الذي حضرتُ من أجله ووجهتُ كلامي إلى القاضي:

– أعتبر فقدان عذريتي ثمناً لبراءة أخي.

أجابني الرجل وهو ينظر إليّ ببرودة وشرود، ويمرِّر أصابعه على ذقنه قبل أن يشعل سيجارة:

– سأتدخّل بكلّ ثقلي، سأفعل ما بوسعي حتى ينال براءته.

في البيت تعرَّيت أمام المرآة حاضنة أسراري في محاولة لأكتشف مدى عمق الثقب الذي ثُقِب بداخلي. لم أستطِع أن أشاهد شيئاً. ترسَّخ في ذهني أن الثقب يمتد من تحتي إلى فمي، ومن ثم إلى رأسي وعقلي وقلبي. التمستُ من نفسي أن لا تعود تعير للموضوع اهتماماً، وأن تتحاشى التفكير في ثقبي، وما خلفه من ثقوب أخرى في روحي. ليتها تساعدني. لكن نفسي كان لها ردّ آخر.

تعاتبني نفسي، تجعلني أجترّ مرارة الإحساس بأنني بليدة تافهة، وبأنَّ الرجل خدعني ودمَّرني، وبأنه نصبَ عليّ، وأنني قدَّمت نفسي لهلاكٍ ماحق. خجلي وخوفي واندهاشي وبلادتي

وضعفي، كلها كانت سبباً في فقداني بكارتي في دقائق، ثقبٌ له ثمن غالٍ في مجتمعنا.

أتذكر الدم الذي سال مني فأعتبر نفسي أنني ضِعْتُ. خسارة البكارة وقصص البنات الخاسرات لها في حيّنا مرعبة.

* * *

في سبيل أخي حسن كل شيء يهون. الحبّ الكبير عادة ما نؤدي ثمنه غالياً. لا يهم، قد لا أجد رجلاً يتقبَّل حالتي ويتزوجني، لكن لي عذراً فيما قمت به، وعذري ستتقبّله نفسي وسترتاح. لن أتزوج. فتيات كثيرات في مدينتي لم يتزوجن، وقد يكون ذلك بسبب فقدان البكارة، وفي ظروف تختلف عن ظروفي.

تناسَلَت الوساوس داخلي. أحاول أن أتناسى ثقبي. أصبَح رجائي الوحيد بعد الاغتصاب أن لا أحمل. مساء اليوم نفسه توجَّهت إلى حمام الحي، دلكت وحككت بشدّة أعضاء جسدي، أفرغتُ الكثير من الماء لأمنع ماء الرجل من الوصول إلى رحمي حتى لا أحبل منه. كأنني أتطهَّر ممّا لا يُتطهّر منه. عذبني الخوف من الحمل. أوقفت عذاب النفس وحسمتُ الأمر. لو حملتُ سأشنق نفسي. نفسٌ محطّمة لا شيء يمنعها من أن تتجبَّر في تحطيم نفسها.

كيف لي أن أحطم نفسي؟ مَن منا بلا خطيئة؟ سأحبّ نفسي ولو أنها أخطأت. كآبة يصعُب تحمّلها، تعجنني.

أرغبُ في أن أحكي، لعلَّني أجد استشارة تفيدني وأتخفَّف

ممّا يعذّبني. لن ينفع أن أحدِّث أمي بما وقع، يكفيها ما حلَّ بأخي، ولا صديقتي لطيفة، فقد تفضح سري.

لطيفة هي التي دلَّتني على امرأة تشتغل منظِّفة بالمحكمة تدَّعي أن لها علاقات مهمة. قدَّمتني إليها على أنني صديقتها التي تعزّها أكثر من نفسها، وعلى أنني مستعدة لفعل أي شيء من أجل إطلاق سراح أخي البريء والمهدّد بسنوات ثقيلة من السجن. السجن عذاب وأخي حسن فتى غرّ، صغير السن لا يملك القدرة على تحمله.

اعتبرَت المرأة الأمر بسيطاً ووعدتني خيراً:

«أعرف قاضياً له سطوة ومكانة في المحكمة، باستطاعته أن يتدخل لتخفيف الحكم، وقد يحوِّله إلى براءة».

حدَّدت لي موعد لقاء بالقاضي قبل مثول أخي أمام المحكمة، وأصرَّت أن يتم اللقاء في منزله لأشرح له حالتي.

أبي أصبح بادي الهشاشة والتعب. يوم اعتقل أخي وقف أمامنا - أنا وأمي - ونحن نبكي، ونهرنا بأن نصمت، مدَّعياً بأنه لا خوف ممّا وقع، فسيبحث عن معارف له وسيجد حلاً. لكنه صار يعود إلى البيت كلّ ليلةٍ وأثر العياء وانقطاع الرجاء باديان عليه. يحاول أن يجعلنا نتقبل قدرنا فيما وقع لأخي، وكأنّ رجاءه في أن يجد مَن يقف بجانبه قد انقطع. لازم بعد ذلك ترديد الألطاف والدعوات بِعَدّ عقيق سُبحة في يده قبل أن يُعيد العدّ والدعوات من جديد.

في محاولة أن أزيح عن قلب والديّ الغم الكبير، أخبرتهما

بأنّ شخصية مهمة وذات وزن ستتدخل من أجل أخي، وستخفّف عنه الحكم الذي سيصدر في حقه. أبي ظلَّ صامتاً محدقاً فيّ. أجبتُ تساؤل أمي أنّ الرجل قاضٍ كبير وهو خالُ صديقة لي بالثانوية.

* * *

يوم اعتقال أخي حسن بكت لطيفة مثلما بكينا أنا وأمي. درجة حزنها كانت مشابهة لتلك التي انتابتها يوم هجرها خطيبها. مرة رصدتُها تتطلع إلى صورة أخي المعلَّقة على جدار مدخل منزلنا وهي تذرف دموعاً.

والدي الذي حاول أن يُبدي صبراً يليق بالرجال تلألأت دموع قلب عينيه. كان يصعب عليّ أن أرى وجه رجل خطّ الشيب شيخوخته، واعتدتُ مشاهدة انسياب ماء الوضوء على وجهه، يرشف ماء البكاء.

يومان كانا قد مرّا على الأيام العصيبة التي عرَفَتْها مدينة تطوان في شهر يناير من سنة 1984. في اليوم الثالث طوَّق رجال الأمن منزلنا في الفجر، قبل أن يهزوا بابه بطرق عنيف. طلبوا أخي. لم تجد محاولات أمي للتمويه وادّعاء أنه غادر البيت. اقتحموا المنزل وانتزعوا حسن من مطرحه، لم يسمحوا له بأن يرتدي ملابسه. لم يقاوم، حُمِل من فراشه بمنامته ورُمِيَ به داخل سيارة أحضرت إلى الدرب الضيق، لم نكن قد رأينا يوماً سيارة تَلِجُه من قبل. حاولت أمي اللحاق بمَن أخذوه. من باب الدرب عادت تبكي وتصيح لِمَ أخذتم ابني؟

الاحتجاجات والمظاهرات كانت قد روّعت المدينة. الغلاء وارتفاع الأسعار أشعلت المتظاهرين. شباب وكهول دفعهم السخط والتذمّر لإعلان رفضهم بتلك الطريقة.

اشتعلت النيران ببعض البناءات ونُهبت بعض المحلات. أخي حسن لم يكُن يملك من الشجاعة ما يجعله يشارك المتظاهرين مظاهراتهم. كان يحبّ الوحدة، يتفادى الصخب والتجمعات ويقضي معظم أوقات فراغه في الاستماع إلى الموسيقى عبر الراديو أو عبر أسطوانات كان يتبادلها مع أصدقائه.

والدي كان يرى أنّ الحي الشعبي الذي نقطنه لا يليق بعائلتنا، ولا لمَن هو بمثل ابنه الوديع كما كان يصفه. حسن الذي يكبرني بسنة ترك دراسته مبكراً ليُلحِقَه والدي بمركز للتكوين المهني تخصص الحدادة.

من يومها انشغل أبي بالتفكير في طريقة تساعده على توفير مبلغ من المال يمكّنه من فتح دكان لابنه ليُزاول مهنته. أحياناً يصرّح بما يختلج في صدره من رغبة في الرحيل عن حيّ يغرق أهله في الفقر والعنف، والهجرة إلى حيّ لائق، لكن مدخوله من بيع الخضر بباب سوق الحي يكفي بصعوبة لمصاريف حياتنا اليومية البسيطة، ولأداء قيمة كراء البيت في الحيّ غير المرغوب فيه.

هاجم المتظاهرون ملاحق الإدارات القليلة الموجودة داخل المدينة القديمة. غير بعيد عن حيّنا تمّ اقتحام فرعٍ لبنك صغير. نهبت الكراسي والمكاتب، وأخرجت الخزنة الحديدية المحتوية

على الأموال والتي تعذَّر عليهم فتحها إلى الشارع. قبل أن يقتحم رجال الأمن الأزقة والأحياء حاول بعض المحتجّين جاهدين فتح الصندوق الحديدي بشتى الوسائل.

الحظّ العاثر قاد أخي حسن للمرور في الزقاق الضيق حيث تمّ وضع الصندوق. تحلَّق جماعة من المحتجين حوله حين ادّعى أحدهم أنّ القادم يتابع دراسته بشعبة الحديد، وأنه قادر على فتحه.

لم يفلح حسن في الهروب من الجماعة التي طوقته. إنه خجول، لم يكن وحده الخجل الذي جعله يمتثل لأوامر المتحلقين حوله، بل كذلك خوفه من تهديداتهم دفعه لقبول ما طلبوه منه. ابن للجيران أخبرنا أنّ حسن تعرَّض للتهديد والحصار، وأنه أمام أولئك الهائجين الحاملين لسكاكين وعصي لم يقاوم. كيف سيقاوم إنسان جماعة تهدِّده متخيّلة أنّ الخزنة تحتوي أموالاً؟

لم ينفعه سوى الاستسلام. بعد ساعة من معالجة الصندوق الحديدي تمكن من فتحه، ارتمى المحتجّون الواقفون في انتظار حصّتهم من الغنائم على محتوياته، وحدها وريقات مالية تشكل مبلغاً زهيداً كانت محتواه.

في الجلسة الأولى للمحاكمة كان أول لقاء لنا بحسن بعد اعتقال دام ثلاثة أشهر. محاولات أبي وأمي لمعرفة مكان اعتقاله من قَبل باءت بالفشل. أثرُ التعذيب واضح على وجهه. بكى حين رآنا من شباك قاعة المحكمة حيث حُشِر المتهمون. في أثناء المحاكمة صرح لقاضي الجلسة، وهو يبكي، أنه قام بفتح

الصندوق تحت التهديد، وأنه تعرَّض لتعذيب شديد في مخفر الشرطة. أجِّلت جلسة النطق بالحكم.

لم أجد بداً من أن أبكي كما فعلت أمي. اقتربتُ من الشباك عند خروجنا وطمأنته بأنني سأفعل المستحيل لتبرئته.

* * *

اقترب تاريخ جلسة النطق بالحكم. قصدتُ المحكمة لأتصل بالقاضي الذي اغتصبني، بالباب منعني رجل أمن من الولوج. حدَّدت له اسم القاضي الذي أرغب في لقائه. رازني بنظرة خلتُها تحمل اتهاماً واحتقاراً. ارتبكتُ وخجلتُ من نفسي. تراءى لي أنّ الرجل يعرف حالتي وسري، وأن القاضي لن يكون سوى زير نساء يتفنَّن ويسعد باغتصابهن.

رفضَ طلبي، وأمرني بأن أبتعدَ عن باب المحكمة. حين طأطأتُ رأسي وابتعدت حسبتُ الحارس يسترق النظر إلى ما بين فخذي ليُعاين جرحي.

غير بعيد عن باب المحكمة قضيتُ وقتاً طويلاً أغدو وأروح، أمشي قبل أن أعود أتطلع مرة أخرى ببلادة إلى ملصقات السينما أمامي. أحصر رغبتي في إفراغ مثانتي وأقضم أظافري. طالَ انتظاري للقاضي إلى أن قربت الشمس من المغيب. هرولتُ نحوه حين خرج واقترب من سيارته، امتعضَ حين تفاجأ بوجودي. أشارَ عليّ على عجل أن أزوره في المنزل حيث التقينا أول مرة، قلتُ له إنني مريضة وجلسة النطق بالحكم على أخي قريبة. لم يمهلني وقتاً كافياً، صعد السيارة وهو يقول لي إنّ المكان غير مناسب

للحديث، وعليَّ أن أكون مطمئنة فيما يخصّ الحكم قبل أن ينطلق بسيارته غاضباً.

شعرتُ بالإهانة. كان فظّاً في تصرّفه إلى درجة لا تحتمل. فكّرت في أن أصرخ وأشهّر بالرجل، وأتهمه بأنه اغتصبني وأفقدني عذريتي. لن أجني من فضح سري سوى الفضيحة.

ما الذي أفكر فيه؟ ليخرج أخي من السجن وبعدها سأتناسى كلّ شيء، سأصمت كما صمتَت الكثيرات ممَّن تعرضن لمواقف مشابهة. سأعيد البسمة لأمي وأبي وسأعيد أخي إلى الحياة. وجود شابّ مثله في السجن بين عتاة المجرمين هو أكبر من وفاة، هو دفن في الجحيم قبل الموت.

* * *

ليلة سوداء، كانت ليلة يوم الاثنين. قضيتُ الليل كلّه أتقلب على فراشي. أمي بدورها لم تنَم طيلة الليل. بعد صلاة الفجر وجدتها تتهيأ للتوجّه إلى المحكمة لسماع النطق بالحكم.

في الصباح وأنا أغيِّر ملابسي لم يتوزّعني الحزن الذي كان قد هيمن عليّ تلك الأيام حين تطلعتُ إلى المرآة، رأيتُ نفسي جديرة بالاحترام وبالفرح وبالرضا عن النفس. اكتشفتُ أن مَن يضحي في سبيل الآخرين يصبح قريباً من السعادة. سعدت. أخي سيُحكم عليه بحكم خفيف أو بالبراءة.

داخل المحكمة حراس أمن كثيرون وعدد من المحامين. المحامي الذي سيدافع عن أخي، والذي تحمَّل خالي أداء ثمن

خدمته، وقف معنا لدقائق، قال لأمي إن عقوبة أخي لن تتعدى ستة أشهر.

ضجَّت قاعة المحكمة حين تمّ إدخال المعتقلين. والدي جلس وقد أحنى رأسه بين كتفيه. كنت أمرِّر عيني بسرعة بين وجوه العدد الكبير للمعتقلين باحثة عن حسن، وجهٌ منهك وعلامات تعذيب جسدي ونفسي بادية عليه. أطلقَت أمي بكاء صامتاً.

سيطرت هَيْبَة على القاعة عندما دخل أعضاء الهيئة التي ستنطق بالحكم. جلتُ ببصري بحثاً عن القاضي. لم يكن الرجل من بينهم. بدأ الشكّ فيما وعدني به يتلاعب بي. جلس الرجال وصرامة تبدو على ملامحهم. رهبة طالتني. لم يطُل وقت المحاكمة، ودفاع أخي قُوطع تدخّله. شعارات وضجيج وبكاء أنهت حكم المحكمة.

عشرون سنة في حق أخي، وباقي المتهمين بين عشر سنوات وثلاثين سنة سجناً. تلاحقني صرخات أمي وضجيج الأهالي وشعارات المعتقلين حول الصمود والرفض. تطلّعت إلى أخي، لم يكُن يردِّد الشعارات، كان دهشاً يحدِّق فيما حوله قبل أن يحني عينيه ويحيّيني في صمت، ويبكي. جررتُ قدمي أهرب من القاعة. قطرات الدم التي نزت من بين فخذي وعلى تباني يوم لقائي بالقاضي في منزله، رأيتُ مثلها تنزّ على وجه أخي، قبل أن يمدّ يده ويمسحها.

عشرون سنة من أبواب حديدية مغلقة على فتى يافع مليح، بين صناديد من السجناء الأشرار، فتحت الباب لآلاف الأسئلة

الجارحة المبهمة القلقة داخلي، كلّما اختليتُ بنفسي. طريق تقودني إلى عتبة الجنون.

أمي كأنها خبلت، لم تعُد تكفّ عن الأنين. أصبحت تقضي يومها ممدَّدة تشتكي من ألم يسيح في جميع أعضاء جسدها ليقبض على صدرها. أبي صار كتلة أحزان وحيرة، ليخفف قليلاً عن نفسه أرجَعَ ما وقع لنا إلى عثرة قدر. ضاقَت بي جدران البيت وفضاء سطحه الذي كنت مغرمة بالتطلّع من فوقه إلى المدى قبل الغروب. لم أعُد أستطيع أن أمكث داخل المنزل.

أنغلق على نفسي. أزداد انغلاقاً، أفتح باب الانطواء على مصراعيه وأغلقه عليّ، ليترعرع داخلي وسواس قهري يُعْلِمُني بأنني حتماً سأجنّ. أهرب من ضغط وساوسي محاولة أن أقنعها بأنني فعلتُ ما فعلت للتخفيف عن أخي من حكم قاسٍ.

الرهاب المرضي من الجنون أنساني بعض ما ألمَّ بي. تناسيتُ حادثة القاضي وضياعي الذي تسبَّب فيه، وانشغلتُ بخوفي من الجنون. وكأنَّ الهم لا يفسح المجال إلّا للهمّ لكي يعوّضه. الهم الأكبر ينسخ سابقه وما هو أصغر منه. ليرحل عني شرفي إن كان شرفي يلوّثه ثقب وليبقى لي عقلي. أضحيتُ بعدها جسداً وروحاً سمَّمهما ما يتدلى من بين فخذي الرجل.

* * *

امتحان شهادة البكالوريا على الأبواب. استطعتُ أن أغيِّر مسار تفكيري نحو الاهتمام بالدراسة. رسمتُ نجاحي في شهادة

البكالوريا مخرجاً ممّا أحياه، سأنجح وقد أصبح قاضية أو محامية.

كان حصولي على البكالوريا مفاجأة بالنسبة لي. فرحةٌ لا توصف عمَّت أفراد العائلة. رضيت عن نفسي حين وجدتُ أنني أدخلت عليهم بعض الفرح. سأحصل على منحة الدراسة. مبلغٌ ضئيل يساعدني على أداء تذكرة ركوب حافلة الكلية في اتجاه مرتيل وشراء ما هو جدّ ضروري.

اقترب تاريخ زيارتنا لحسن. ثلاثة أشهر وأمي تشكو وهي تعدّ ما سنحمله له. حالتي النفسية بين المدّ والجزر مع الرهاب الخانق الذي أخجل وأخاف أن أحدِّث أحداً عنه. أمي لن تتفهّم حالتي، أبي لن يفيدني في شيء إذا ما حكيتُ له، أخي كريم ما زال صغيراً، ولا صديقة لديّ تحافظ على أسراري إنْ بُحت لها. أمضَغُ ألمي وأجتره.

كان عليّ أن أشتري لحسن بدلة رياضية. أمي رمَت بأمرها عليّ ولم تسألني كيف. عليك أن تشتري لأخيك بدلة رياضية لائقة ليلبسها في سجنه.

لم نكن نملك مالاً نقتني به البدلة، ثمنها غالٍ. كان شهري الأول في الجامعة، ولم أكن قد حصلت بعد على مبلغ المنحة الدراسية. بصعوبة استطعنا توفير، من مصروفنا الضئيل، ما نشتري به موادَّ غذائية، كان حسن في أمسّ الحاجة إليها. ألحَّت أمي عليَّ أن أتدبر ثمن البدلة ببيع طيور الحمام.

أمي كانت تكره الحمام، إنها كباقي أهل الحي تتطيّر منه.

إنهم يعتقدون أنّ الأسر التي تقوم بتربيته يُصاب أفرادها بالفقر. لا أعرف من أين أتى سكان حيِّنا بهذه الغلظة تجاه الطير الوادع. خشونة غير مبرَّرة تُجبرنا أن نكره طيوراً وديعة.

كان حسن قد صنع قفصاً كبيراً من الخشب في سطح منزلنا واشترى حمامتين سهر على تربيتهما، قبل أن تتوالدا. في الليل اقتربتُ من الطيور لأقبض عليها. راودتني فكرة أنني أقوم بجريمة في حقها، وبخيانة في حقّ أخي. اندفعتُ وواجهتُ أمي بأنه لا يمكننا بتاتاً بيعها. بدون تريّث علَّقَت على كلامي متشنجة بأنه ما دمتُ أرفض فلأتدبر ثمن البدلة بوسائلي. لم تنتظر مني رداً حين واصلت:

- المرأة الذكية تعرف كيف تستخدم أنوثتها للإيقاع بمن يؤدي أضعاف ما ترغب في شرائه.

صُدِمْت. أكانت دعوة صريحة من أمي أن أتعاطى الدعارة أو ما يشبهها لأحصل على ثمن البدلة؟!

كلام أمي هذا ولَّد لديّ أزمة روحية عميقة. ظلَّت كلماتها تلك تعذِّبني طيلة حياتي. خامرني حقدٌ وكراهية تجاهها، فجأة وجدتني أكفر أمي، وأُخرِجها من منظومة القيم الإنسانية. أصبح ذهني يعوم في هذه الاستيهامات بشكل يكاد يكون يومياً. تخيّلت أنني لن أذرف عليها دمعة واحدة يوم وفاتها.

الحراك الطلابي في الجامعة مَدَّني ببعض الشجاعة. كنت أستحضر دعوات الثورة على السائد، والتضحية، والإقدام حين توجّهت لاقتناء البدلة لحسن. الإقدام أنواع.

اخترتُ متجراً صاحبه رجلٌ على أبواب الشيخوخة، يبدو متعباً. البدلة بيضاء مخطَّطة بالأسود، مواتية لوسامة أخي وللون بشرته. كان ذا حُسن قبل أن يقبع في السجن. تُرى ما الذي تبقّى الآن من حسنه. خلال المحاكمة كان ذبول منفّر يغلّف ملامحه، حتى أنني تحاشيت التطلّع إلى وجهه طويلاً.

بعدما عرض عليّ الشيخ مجموعة من البدلات الرياضية. غافلته وسرَّبت البدلة تحت سترتي. شددتُ عليها زندي حتى لا تسقط مني. ادَّعيت عدم إعجابي بما قدَّمه لي وتسلَّلت هاربة.

- اقبضوا على اللّصة.

صوتٌ قوي غاضب يتبعني. حاولت أن أجري. غير بعيدٍ من باب الدكان شباب في مثل سن أخي قبضوا عليّ. ثبتُّ نظراتي في عيني شاب قوي كأنني أترجاه أن يتدخل لينقذني. حاولتُ أن أستعطفهم أن يطلقوا سراحي. كيف ستطلب ذلك من جماعة تحيط بك وتريد الفتك بك؟ شباب ونساء وأطفال يتطلعون مذهولين إلى سارقة شابة بلباس نقي. مظهري لم يكن يوحي بأنني لصة.

انتظرتُ أن تنزل عليّ اللطمات من كل جانب. عقلي توقف. لم أنطق. استعددتُ لأقي وجهي بيدي. أيام عيد أضحى فائت كنت في سوق الغنم مع والدي نبحث عن أضحية بمبلغ بسيط. حاصر البائعون لصاً يحاول سرقة كبش، انهالوا عليه ضرباً بالحبال والهراوات التي يهشّون بها على مواشيهم. ظلَّ الرجل ملقى على الأرض مدمى الجسد والوجه وهو يحتضر. انتظرتُ المصير نفسه.

ملابسي تضغط على جسدي. صدري يجيش باضطراب

ويضيق. انتفخ. صرختي لم تتعدّ حلقي. أتأمل الوجوه المحيطة بي. خفتُ أن يكون بينهم مَن يعرفني.

أدخلني الذين قبضوا عليّ إلى المتجر وأغلقوا الباب. هرج في الخارج. انتظرتُ وصول الشرطة. تطلَّع الرجل صاحب المتجر باستهجان نحوي. نزع البدلة من تحت إبطي ولكزني قبل أن يطردني خارج الدكان. حاول شاب اعتراض طريقي، لكن الرجل أمره أن يدعني أخرج. أختنق. أصابع من حديد تقبض على صدري قبل أن تصعد إلى عنقي.

في باب الدكان استقبلني صفير وهتافات تشتمني وتستهزئ بي. رجوت اللّه أن لا يكون من بين أصحابها من تعرَّف عليّ. وصلت منهارة إلى البيت. في الطريق كنت أطلب من اللّه أن أتمالك خطواتي ولا أسقط من شدّة انفعالي. قبل أن تكلِّمني أمي تمنيتُ لو كان رجال الشرطة قد حضروا واعتقلوني.

كان عليّ أن أضع منذ ذلك اليوم شالاً أغطي به رأسي حتى لا يتعرَّف عليّ مَن شاهد حادثة السرقة.

«شُوحَا» أحد أبناء حيّنا كان يجيب الشرطة حين يُسأل لماذا يسرق من حين إلى آخر:

- لأنكم لم تعتقلونني من قبل.

أما «الخْليفَة» صبي فرن حينا الذي يعود إلى السرقة من حين إلى آخر فكان يجيب:

- خلقني اللّه فقيراً وعاشقاً للكثير من الأشياء التي لا أستطيع الحصول عليها. حين أرى ما يعجبني لا أرتاح إلّا بعد أن أسرقه،

ولو أنني أعلم أنه سيقبض عليّ وسأضرَب وسأعاقَب وأسجَن. إنه تحقيق رغبة تنتصر على رغبتي في أن لا أسرق.

كلّ مَن يسرق يبرِّر عملية السرقة. أنا حين كنت أشعر بالندم الشديد على ما أقدمتُ عليه وتبدأ نفسي في معاتبتي، كنت أتخيَّل أخي وقد لبس البدلة الرياضية المخططة بالأبيض والأسود وهو يبتسم، وأمي تتطلع إليه وتحسّ بالرضا ولا تنقنق عليّ كدجاجة، فأمحو ما تعاتبني به نفسي.

سنوات لم أعُد أمرّ بالقرب من الشارع الذي يوجَد به المتجر. لم أمرّ من الشارع نفسه إلا بعدما تغيرت حالتي.

* * *

لم تَتَحْ لي من قبل فرصة للسفر خارج مدينة تطوان. بعد عدة بلدات وثلاث مدن بدأت الحافلة تغوص في طريقٍ جوانبه تلال جرداء تشمئزّ منها النفس. فصل الشتاء تأخّر. لم أكن متعوِّدة على رؤية مسافات طويلة من أراض صفراء قاحلة. أشعة شمس حارقة تتسرب إلى داخل الحافلة. أحسستُ أنّ الهواء يُسرَق مني. أبحث عن الريق بين شفتي وحنجرتي. أمي صامتة، ولطيفة التي رغبت أن تشاركنا زيارة حسن في السجن، كانت تغلق عينيها حتى تتجنّب دوخة السفر وتحاول أن تنام.

كان عليَّ أن أتناول قرص دواء اتقاء لدوخة السفر. ساعدني أن أغفو قليلاً. لا أريد أن أتساءل كيف ستكون حالة أخي حسن. لم نرَه منذ أشهر. مُنِعَت عنا زيارته. أتأسف لأنني لم أتمكَّن أن أجلب له بدلة رياضية.

عدّة أشهر مرت على اعتقال حسن ونحن نحاول الحصول على إذن بزيارته في السجن. كانت فترة كافية لتصبح أمي كعود قصب يابس علقت عليه ملامح امرأة. أبي أصبح صموتاً يرفع من صوت التلفزة كلما بدأت أمي تحدِّثه عن حسن. يردّ بانفعال ويأمرها أن تغيِّر موضوع الحديث. أخي كريم لم يعُد يحضر إلى المنزل إلّا ليلاً لينام.

كنت قد توجَّهت إلى القاضي. اقتربتُ منه قرب باب المحكمة بعد ساعات من الانتظار، وأنا عازمة على أن لا أكلمه عن فضّه لبكارتي، وأن أطلب منه التدخل لنتمكن من الحصول على رخصة لزيارة أخي. تسلَّل الرجل إلى سيارته وانطلق بسرعة متجاهلاً وجودي. فكَّرت أن أصرخ ساعتها وأتهمه بأنه اغتصبني ونصب عليّ. لا دليل لديّ، ولو كان عندي دليل، ماذا بعده؟ الرجل قادر على أن يتهمني بأنني أكذب عليه، ويلفِّق لي تهمة تودي بي إلى السجن. خلق فضيحة جديدة لي ولعائلتي. تشاجَرَت الأفكار داخلي. لم أتكلم. عنَّت لي فكرة معذّبة تدفعني إلى الصراخ والتعرّي. شملني تخوّف من أن أشرع في الصراخ وأعري نفسي. وجدتُ نفسي على خطى الجنون. ركبني خوف من نفسي فانحزت إلى الصمت. لستُ أدري ما الذي منعني أهو خجلي أم خوفي.

ساعتان من الانتظار أمام الباب الحديدي للسجن لتفتح على صراخ الحرس ملوّحين بعصي وشتائم، لم تكن تخلو من غلظة وكلام فحش، شبيهة بتلك التي كانت تستبيح مسامعنا في حيّنا بتطوان.

كنت أخجل كثيراً حين يتناثر السباب والشتائم في دربنا. أتعمَّد صمماً مؤقتاً حين يتقاذف الأطفال واليافعون والصعاليك والنساء أحياناً بعضهم بعضاً بالسب الماجن. تقتحم الشتائم الفاحشة المقرونة دائماً بذم الأعضاء الجنسية وسبّ الدين رطوبة أسوار بيتنا، مما يخجلنا أمام عائلتنا. إذا صادف وكنا مجتمعين حول مائدة الغداء أو العشاء، وتفادياً لسماع كلمات السبّ بوضوح يحاول كلّ واحد منا أن يثير موضوعاً للنقاش بصوت مرتفع.

عادة ما كان يجدها حسن فرصة ليكلمنا عن طيور الحمام التي يقوم بتربيتها على سطح البيت. بسرعة أشاركه الحديث وأسأله عن حالها، مَن وضعت منها بيضاً، مَن هجر منها ولم يعُد... فينساب حسن في سرد ووصف حالة حمامه بنشوة.

في الحياة أشياء لا ندركها تمهِّد الطريق لقدرنا. حسن وكأنه كان يساعد قدره على أن يخطّ خطى حياته منذ البداية، منذ صغره. كان يكره العنف، لم يكن يتشاجر مع أقرانه. يحب الهدوء ومجالسة كبار السن نساء كنّ أم رجالاً. لِمَ كان حسن هكذا؟ لا أجد أجوبة لأسئلتي ولم تنفعني محاولاتي في القراءة لمعرفة أسباب تصرفاته. خلصتُ إلى أنّ الحياة اشتهته هكذا على طريقتها وأنه لا سبيل لدي لتغييره. كيف نجادل الحياة في اختياراتها لسبل عيشنا؟ كنت أراه فتى طيباً أحببته وكنت أجابه أمي كلما رأيتها توبّخه.

قبل يوم من سفرنا لزيارة حسن اكتشفتُ قفص الحمام فارغاً. من النادر أن يغادر الحمام قفصاً ولو من دون باب. شكَّكتُ في

أن تكون أمي قد قامت ببيعه. ستجيبني حتماً بأنه قد هاجر إن سألتها. سكتُّ ولم أرغب في إثارة المواجع.

بباب السجن نودِيَ علينا. دخلنا نحمل ما أعددناه من حلويات بسيطة ومأكولات، وما اشتريناه من سكر وشاي وزبدة. فتّشت محتويات القفف قبل أن نعبُر الممرّ الفاصل إلى داخل السجن.

جلسنا ننتظر خروج حسن في ساحة غير مغطاة. وجوه أشخاص حوكموا مع أخي تعانق وجوه مَن زارهم. وجوه أخرى لعتاة المجرمين تتفحصنا.

هذا السجن معروف باحتوائه لكبار المجرمين. قتلة وأصحاب جرائم تقشعرّ لها الأنفس والأبدان، ذلك ما قالته لي لطيفة وهي تأمرني بأن أبعد نظراتي بسرعة إذا ما التقت عيني بعينَي أحد المساجين، قد يتسبّبون لنا أو لحسن بأذى.

تأخر حضور أخي. أحسستُ بثقل يجثم على قلبي. رغم اشتياقي له رغبت في مغادرة السجن بسرعة. أمي تحني رأسها وتمسح دموعاً.

حلَّ حسن بين وجوه عنَّفها وجودها الطويل في السجن، إن لم تكن كذلك قبل دخولها إليه. أسرعَت أمي لتحضنه وتقبِّل وجهه ورأسه. طلب منها أحد الحراس أن تعود إلى مكانها.

عانقني، وضع قبلة على خدي وأخرى على خد لطيفة وجلس بيننا. ارتفع صوت قوي من مائدة غير بعيدة عنا صائحاً:

- حضر القمر.

أردف بصوت أثار لديّ اشمئزازاً:

- قمر في الوسط ونجمتان تحيطان به.

رفعتُ عيني جهة مصدر الصوت. سجين ببنية جسدية قوية يطغى لون أسود وأحمر قاتم على بشرة وجهه، ووشم يزوّق ذراعيه. غمز لي بعينيه متحرشاً حين التقَت نظراتنا. ثلاثة رجال يجالسونه تطلَّعوا جهتنا بفضول. أمي لا تبالي بما يحدث. لطيفة منقبضة ومنزعجة مثلي. كنت صامتة ضاجّة بالصراخ. ضجّة صراخ لم أطلقها تشتّتَت في عروقي، ارتعش جسدي على إثرها.

اضطربت حين رأيتُ حسن قد ارتبك وعلا وجهه احمرار مباغت، وداهمَ ارتعاش خفيف أصابع يديه. مددتُ نظري، ارتعبت حين لمحت نقوشاً للحناء على يديه. رسوم من الحناء لورود، وكأنني أهرب ممّا خطر ببالي رميتُ بنظراتي نحو قدميه. كانت القدمان المحشورتان في صندل من البلاستيك موشومتين كذلك بأزهار وبورود.

إنها ورود من الحناء تنقش على يدي وقدمي العروس ليلة دخلتها. قبل أن تدخل عروس على عريسها تقوم الماشطة بتزيين يديها وقدميها بمثل هذه النقوش. تلك عادتنا. أنا ربما لن يكون قدري أن أتزيّن بحناء العروس، أخي نابَ عني وحقَّق ما لم ولن أحقِّقه.

لطيفة التي انتبهت لما انتبهتُ إليه، بدأت تطرح عليه أسئلة مُربِكَة عن حاله داخل السجن، وتلحّ عليه إن كان يتعرَّض لتضييق ما. حسن محرج ومتوتّر لا يردّ إلّا بمقدار.

الشخص الذي عاكسني في البداية اقترب من مجلسنا. وضع يده على كتف أمي. وهو ينظر نظرات غير عادية نحو حسن ونحوي، خاطب أمي:

- نِعْمَ مَا وَلَدْت أيتها الشريفة. اهنئي... إنني هنا لأحميه ليل نهار.

أمي سارعت تشكره وتدعو له بأن تفكّ أوحاله وأغلاله، وبأن يطلق سراحه قريباً. ابتسم الرجل وهو يودِّعنا ويدعونا إلى الاطمئنان على حسن طالما يوجَد بالقرب منه. حسن احمرّ وجهه، خفض رأسه ولم ينطق بكلمة.

انصرف الرجل. دمائي أوحال تغلي وتركل عروقي. لطيفة تتشاغل بالتطلّع نحو المساجين وزوّارهم.

والرجل يغيب عنا، وجَّه سجين كلاماً إلى زميل له متعمداً أن يُسمِعَنا:

- عائلة العروس أتت تقدِّم لها تحية الصباح.

علت ضحكات في خبث. خرج حسن من قوقعته وتكلَّم بصوت يحمل نغمة الارتباك:

- لا تعيروا لكلامهم اهتماماً. أنا هنا محميّ من قَنْفُوذَة.

وأشار بيده للشخص الذي سلَّم علينا وغادرنا.

يوم تغلبك لطمات الدنيا تتمنى لو تنفتح الأرض لتدفنك، أو لتمتصّ آلامك وتدفنها، ولكنها لا تفعل. حملقتُ في الوجوه التي كانت تتندَّر على أخي وعلينا. رأيتُ الإجرام يتراقص في عيونهم. لم أتخيَّل يوماً أنني سأجتمع مع أمثالهم في مكانٍ ما.

رغبتُ أن ننهي الزيارة ونرحل. لم يعُد لديّ كلام أوجّهه لأخي. جفَّ حلقي. نطقتُ بصعوبة أنصحه أن يعتني بنفسه. أي اعتناء؟ لست أدري. عانقته بحرارة. أول مرة أعانقه بمثل تلك الحرارة. أوقفتُ دموعي من الانهمار على كتفيه قبل أن نخرج.

عند الباب ألححتُ أن ألتقي بمدير السجن أمام استغراب أمي. قيل لنا إنه غير موجود. طلبتُ ممَّن ينوب عنه أن يوفِّر لأخي مكاناً بعيداً عن تلك الوجوه التي وصفتها بأنها مجسّمات للشر. صرختُ بأنّ أخي تعرَّض لأبشع أنواع التعذيب الجنسي. اغتصابه ونقش أزهار العروس على أطرافه الهدف منه تدميره نفسياً، وتدمير هويته الجنسية وذلك بتزكية من إدارة السجن وبمشاركتها... صرختُ عليهم أن يضعوه في عنابر المعتقلين السياسيين، وليس مع الوحوش.

الرجل الذي لم يَبدُ الاستغراب على ملامحه وكأنه يسمع كلاماً عادياً انتفض في وجهي:

- هذا كلام كبير... يظهر أنك من المثقّفات.... عليكِ أن تعلمي أنّ أخاك ليس بمعتقل سياسي، وإنما هو معتقل الحق العام، أي معتقل من أجل الإجرام، ولقد وضعناه بحسب ما يخوّله لنا القانون. كما أنه لم يقاوم ولم يرفض ما تعرَّض له من تحرش.

لم أكن أملك أكثر من أن أوجّه نظرات نارية للرجل لن تفي برغبتي في تدميره، لكنها قد تخفّف عني. نطقت:

- أنتم تعلمون أنّ ثمن المقاومة هنا أبشع ممّا يتصور.

بجفاء وصرامة ردَّ أنه عليّ أن لا أدع نفسي تتخيّل أن أخي نزيل فندق فخم وأن هذه حالة السجن، وأنه راشد وكان عليه أن يفكر جيداً في عواقب ما أقدَمَ عليه.

وددتُ لو أرتمي عليه وأمزق وجهه بأظافري. لكنني اخترت الصمت ربما خوفاً وقهراً. قطعت كلامي وخرجت من مكتبه.

أمي بدا عليها التعب والانفعال. لطيفة التزمت صمتاً مريباً. ندمتُ لاصطحابها معنا لزيارة أخي. هي مَن كانت قد ألحّت. من دون أن تتكلم فكرت أنها قد عرفت كلّ شيء. قد تفشي السرّ وتفضح ما آل إليه حال حسن هي مَن أتت للبحث عن بقايا حبها له.

في حيّنا تُحكى العديد من الأخبار عن حفلات أعراس السجون حيث يتم اغتصاب شباب من طرف مساجين عتاة. لم يخطر ببالي يوماً أن يكون أخي في السجن، لكن كيف أتمكن من أن أتخيّله يُغتصب ويحتفى به كعروس. لا قوة لي لأوقف هذه الأفكار الشائهة المتوحشة التي شرعت تفترسني منذ ذلك اليوم، وخاصة حين أكون وحيدة في الليل، لا أستطيع أن أمحوها عن ذهني، كما لا أستطيع أن أمحو من عقلي أنني قاربتُ على الجنون. فرّج يا رب كدري.

ونحن عائدات في الحافلة والليل يغشى الطريق كسرت لطيفة الصمت:

- قد يكون لطف حسن ووسامته سبباً لما حصل له.

قبل أن تضيف وهي تلقي برأسها على نافذة الحافلة وتقضم شفتيها:

- أمثال تلك الحيوانات يغتصبون الشباب والكهول وحتى الشيوخ بإيعاز أحياناً من السجّانين. حتى الحيوانات لا تَغتصب بعضها.

لأول مرة أحسّ أنني أكره لطيفة. لم أجبها. أحنيتُ رأسي على حاجز الكرسي الذي أمامي. راغبة في إغماض عيني وتقييد ذهني.

من أين يأتي الجنون الذي يطرق بعنف ما أمتلكه من عقل؟ لا أجد تفسيراً. قد يكون ممّا نتعرض له من ضغوط وآلام. هناك مَن يتعرّض لمواقف أشدّ فظاعة في الحياة ولا يجنّ، ولا يتعرّض لرهاب الجنون. قد يكون الجنون وراثياً. قراءة كتب علم النفس تُخيفني وكأنني بفتحها سأعرّي نفسي وسأفتح باب الجنون عليها.

لا شك أنّ إطلالتنا على الجنون حالة نتوارثها في عائلتنا. ألم يكن الجنون يدبّ في عقل أمي يوم طلبت من حسن وكريم أن يخرجا ليواجها نَخْطُوطَة بعدما سبّها؟ صعلوك يُنعت بأنه يمشي وهو يتوكأ على سكين.

دخلت أمي مهرولة إلى المنزل لتحثّ أخويّ اليافعين على الخروج لمواجهة الصعلوك. وضعتهما في موقف حرج وهي تولول وتشتكي بأنّ الصعلوك أهانها. تخوفتُ من هول ما ترغب في أن يُقدما عليه حسن وكريم ونزلتُ لأمنعهما وأعاتبها على تهوّرها. العديد من الضحايا في حينا قتلهم تهورهم في مواجهة عربيد لا يملك من الحياة إلّا بذرة الفتك والقتل من أجل أشياء تافهة. ألم تكن أمي مخبولة؟

* * *

من السهل أن يستدعي ويستخرج الإنسان وحشيته. أفكّر في أن أقتل. ما الذي يمنعني من أن أصبح قاتلة؟ سأدخل السجن من أجل شيء يستحقّ. امتلأ رأسي بطنين يطالبني بالقصاص واسترجاع حقي وكرامتي. يبالغ ذهني في تزويدي بالرغبة في قتل القاضي.

صرتُ أتدرَّب في البيت على القيام بالمهمة. أحمل مُدية وأتخيل نفسي أضع بها حداً لحياة الرجل رغم أنني كنت أشمئزّ من رؤية الدم. دوامة العنف النفسي لن تنتج سوى العنف. أقنعت نفسي رغم تردّدي، وقرَّرتُ في إحدى الليالي التحلي بالشجاعة، وتنفيذ ما يروم في خاطري.

في الصباح تسلَّحت بسكين كبيرة وخرجت قاصدة باب المحكمة. في الطريق كنت أتخيَّل جسد الرجل فقاعة تنضح دماً، وبالوناً من هواء سينفجر حين ستخرمه سكيني. إنه لَمِنَ السهل مباغتة الرجل وغرس المدية في عنقه.

قرَّرت أن أنفّذ الأذى بيدي. ليس المجنون فقط مَن يؤذي الآخرين، بل حتى مَن هو في كامل عقله يقدِم أحياناً على ارتكاب جرائم قتل. خيط رفيع جداً يفصل بين الجنون والعقل. خطوة فقط تفصلني. سأقوم بقتله وأنا لم أَخْطُ تلك الخطوة. أودّ أن أقتله وأنا في منتهى العقل حتى أشعر باللّذة، وأحسّ أنني إنسانة استطاعت ردّ ما اغتُصب من كرامتها.

لا مجال لجرد ما ألحق بي من خسارات. لن أُعِدّها. هي خسارات كفيلة بأن تجعلني أقدِم على فعلي وأنا أمتصّ رحيق

شعور بالرضا عن نفسي وعمّا سأقترفه... سأقتله لو تمكّنت. سأقتله وأدع الجنون يتلاعب بي.

وأنا أفكر في سفك دم الرجل غلبت عليّ فكرة أنني قد اقتربتُ من الجنون، شيطان يعبَث بداخلي. نوبة الذعر شرعت ترمي بعواصفها عليّ، بدأتُ أتعرّق. أحاول أن أمنع نفسي من الصراخ. خوفي من أن أجنّ كان السبب في أن أعدِل عن فكرتي ساعتها.

ضغط الخوف عليّ. ثقل ذهني. عادت نوبة الذعر تتمكّن من عقلي فأصبحتُ سجينة حالتي النفسية المؤرقة والمعذبة. أكاد أمزّق ملابسي وأصرخ.

تذكّرت عيادة طبيبة نفسية قريبة من المحكمة. رميتُ السكين في بالوعة وأسرعتُ إلى الطبيبة. أتنفّس بصعوبة وأنا أصعد الدرجات. إحساسٌ بأنني قد أتهاوى. فتحت لي السكرتيرة الباب، اشتكيتُ لها من حالتي النفسية غير العادية. وافقَت أن تُدخلني عند الطبيبة دون موعد مسبق، قبل أن تحدِّد ثمن الزيارة في ثلاثمائة درهم. وكأنها فهمت أنني لا أملك المبلغ نصحتني بالالتجاء في الصباح إلى المستشفى العمومي.

* * *

الخوف من الجنون يلاحقني في يقظتي وأحلامي، أنام على رهابه ويلاحقني عند استيقاظي. هلوسات جنون تزاحم ذهني. أفكار سوداوية لاإرادية. صوتٌ خفيّ يهمس لي بأنني أطللتُ على الجنون. عنفٌ يرجّ بداخلي. صادفتُ جارتنا مليكة في النافذة

حيث اعتادت أن ترميني بكلامها الساقط الجارح. اقتربتُ من النافذة وقفتُ تحتها وبصقت منتظرة ردّها ومستعدة للردّ بأقبح ممّا تتصوره، ردّها كان مفاجئاً، توارت وقامت بإغلاق دفَّتَي النافذة.

صرتُ متوترة. لم أعُد أرغب في الاحتكاك بالناس وبالأخص بصديقتي لطيفة. أصبحت أتفادى وجودي بقربها. أخاف أن تحدِّثني وتسألني عن حسن. كلما ذكرت اسمه إلّا وغمرني شعور بضيق غريب ورغبة في الخروج من المكان الموجودة فيه، ورغبة مُلحَّة في التثاؤب. عرفتُ فيما بعد أنّ تثاؤبي رغماً عني حالة نفسية تعكس قلقي واكتئابي. حتى أبعد نفسي عن مثل هذه المواقف صرت أتهرب من اللقاء بها.

يتوغل الجنون شيئاً فشيئاً في الإنسان ليدمّر عقله. الجنون يثقب العقل، هذا ما كنت أسمعه من عَايْشَة الطَايْشَة، المتشردة التي كانت تتخذ باب دربنا مأوى لها. كانت تردِّد بأنّ عقلها مثقوب، ثَقَبَه الجنون. ليلة شتوية تعرضَت للاغتصاب من طرف مجموعة من صعاليك الليل. في اليوم الموالي أصبحت تتحدث عن عقلها وجسمها المثقوبين. كأنني عايشة المتشردة. أرى نفسي جسداً مثقوباً وعقلاً في طريقه إلى أن يثقب.

الخوف من الجنون سكنني منذ الثقب الذي تعرضت له في منزل القاضي، ثم أحسستُ أنه يلتفّ حولي منذ معرفة حالة حسن في السجن. في البداية راودني الوسواس عابراً في هنيهة، لكنه ما لبث أن عاد يطرق عقلي ويجعلني أستفسر عن مدى رجاحة عقلي.

أستعيد صورة المجانين الذين يعبرون حينا ومدينتنا، أقارن نفسي بهم، وأتساءل عن مدى تلاقي سبب جنوني بأسباب جنونهم. أصررتُ على محاولة معرفة سبب جنونهم. في تساؤلي عن سبب دائهم استفحل دائي.

لم أعُد أستطيع التخلص من وسواسي. زيارة طبيب نفسي تكلّف مبلغاً مهماً لكلّ جلسة. من أين لي بذلك والمنحة الجامعية لم أتوصّل بها بعد؟

أجلس ساعات أتصور نفسي مجنونة. تُبدع مخيّلتي المريضة في نوع الجنون الذي سأتعرض له. الخوف من نفسي على نفسي منهِكٌ. أنفر من التطلّع إلى النساء الحوامل وإلى الأطفال الرضع وكأنني سأجنّ وسأقدِم على إلحاق الأذى بهم عبر خنقهم. ذلك ما قادتني إليه وساوسي.

بعد حصولي على منحتي الدراسية توجّهت عند الطبيبة النفسية. مبلغ الفحص يفوق مبلغ منحة فصل دراسي.

أمامها حكيت عن وساوسي. بدربتها جعلتني أحكي ما حصل لأخي ولي، وهي تساعدني على أن أواصل. بدا لي ألمٌ على محياها وهي تصغي إليّ، رغم أنها كانت تحاول أن تضفي على هيئتها الصرامة والقوة اللازمتين، اللتين تبديهما في مواجهة مواقف شبيهة. أعجبت بقولها:

«إن النساء محكومات بتحمّل أخطاء الرجال وأخطائهن، ممّا يُتعب كاهلهن وينعكس سلباً على صحتهن».

نصحتني بأن أحاول التخلّص من الخوف، فتَراكُمه يحبط النفس ويعذّبها.

سألتها السؤال المحيِّر:

- وكيف أواجه الخوف من نوبة ذعري؟

صمتَت قبل أن تجيب:

- بالتجاهل، أنت ضحية مجتمع متخلّف لكنني أحسم أنك شجاعة، والشجاعة تحتم عليك عدم الاستسلام.

جواب لم يكن مقنعاً لي. قالت لي ما كنت أعرفه.

لكنها عادت تقول وهي تبتسم في وجهي:

- الحمد للّه، لقد وافانا اللّه نحن النساء صبراً جميلاً نكاية في الرجال، ونكاية في مجتمعنا.

صرَّحت لها أنني أرغب أن أتملك قناعة ما تمدّني بالشجاعة لكي أتقبّل حالتي، وبأنني أحاول أن أعتبر كلّ ما وقع لي ضرباً من خيال، وكوابيس يقظة. رأت أنها تجدُني قادرة على التحدي، وذلك أقصر الطرق للشفاء من نوبات ذعري. طلبَت مني أن لا أنزعج كثيراً من حالتي، وأن الضغوط النفسية الداخلية هي السبب، وأن الاحتراس والخوف من الجنون يجعلني أبني سداً يحميني منه.

ثبّتت عينيها نحوي وهي تختم قولها:

- تداعيات الأفكار السوداء تتلاشى حين نعي أسبابها. إنك تخزنين في ذهنك الأفكار السوداء. افتحي منذ الآن نافذة للأفكار

الوردية. ادرسي جيداً وحاولي أن تنسي. إنك صغيرة والدنيا مترعَة بالحب. اشغلي بالك بالدراسة والموسيقى، وقلبك بالحب.

أنت شابة وجميلة والحياة تمتدّ أمامك. حاولي أن تفتحي المجال لصداقات جديدة. لا تتقوقعي على نفسك. افتحي قلبك.

ودون أن أوقفها، واصلت:

- اطرقي باب الحب، الحرمان العاطفي المزمن كثيراً ما يكون سبب اضطرابات تتمظهَر على شكل هلوسات وقلق واكتئاب.

تلعثمتُ وأنا أحاول أن أتكلم. فالحب يثير فيّ مخاوف يصعب عليّ سبر كنهها. نطقتُ وأنا أتنهد:

- ليس هناك مَن يحب فتاة مثقوبة. لفظتُ كلمة مثقوبة رغم أنني أعي أنها كلمة فظة.

- تأكّدي أن هناك رجالاً ليست عقولهم مثقوبة. تأكدي.

* * *

كأنني وجدتُ نفسي أطبق نصيحة الطبيبة. لن أنتظر حباً يأتيني من السماء، سأبحث عنه. لم أكن أعرف إن كنتُ أحببتُ رشيداً أم أنني مملوءة بشحنة من فراغ ويأس أبحث كيف أفرغها، وعند مَن أفرغها. حتماً الحب سيكون ملجأ لذيذاً وأنا أمرّ بوضع نفسي غير مريح.

إن لم يُخلق الحب لمواجهة مثل هذه الأوضاع النفسية فلِمَ يُخلق إذاً؟ لِمَ سأظلّ أعيش على نار الانتظار؟ أأنتظر بمنتهى

الحزن حباً أتوخى منه الفرح؟ لأبادر ولأبحث عن الحب عند رشيد ابن الحي، حبّ يغيِّبني عن الواقع ويجعلني كيس أحلام، حلم جميل ينسخ بحلم أجمل.

شاب يبدو عليه نشاط وحيوية. كان يرمي لي بسهام من نظرات إعجاب حين ألتقي به في الصباح وأنا في طريقي إلى الجامعة. أصبح توجّهي باكراً إلى الدراسة وقتاً مبهجاً وأنا أبحث بعيني عن طيفه. رشيد بائع الدجاج بدكان صغير بسوق حينا لم أجد غضاضة في أن أنشغل به، رغم أن زميلاتي في الدراسة يحلمن بحبّ يكون صاحبه مكتمل الصفات، شباباً وجمالاً وغنى وعملاً محترماً.

تماديت مرة، قرّرتُ أن أشتري منه دجاجة رغم ما أحسسته من اشمئزاز من رائحة الدجاج التي تسود الدكان، ومن منظره بمريلة بيضاء صار لونها بين الأحمر والأسود ممّا تراكم عليها من دماء الدجاج وهو يقوم بذبحها وتريشها، إلا أنني وجدتني أردّ على نظراته بنظرات إعجاب. كلام معسول خاطبته به دون أن أحسّ بأنني مقتنعة بما أقول.

تقدَّم مرة نحوي وطلب لقائي. حاربتُ تردّدي ووافقت. تجاهلتُ ما كانت تحدِّثني به نفسي بأنّ الشاب قد لا يناسبني. كنت أجدني أختنق وأنا أتخيل نفسي متزوجة برجل شبه أميّ، لكن مساوئي أكبر من مساوئه. عليّ أن أقبل به زوجاً إذا ما تقدم لخطبتي.

بعد لقاءات مختلسة ولوقت قصير خلال توجّهي للكلية،

تشجعت ونبَّهته إلى المريلة المتسخة التي يلبسها أثناء مزاولته للعمل. لاحظتُ بعدها أنه بدأ يهتم بمظهره. ملابس نظيفة وتسريحة شعر شبابية. كنت قد بدأتُ أروّض نفسي على حبّه حين اعترضَت أم رشيد طريقي ذات صباح، أخذت بخناقي وهددتني:

- ابني لن يتزوج بفتاة تدرس في الجامعة، وتقضي أيامها تتسكّع بين الطلبة.

كنت مذهولة أحدِّق في المرأة وهي تشدّ بيدها على خناقي، وكأنني أعطيتها فرصة لتواصل كلامها وهي تزمّ شفتيها عند النطق بالكلمات:

- لو فكرتِ في الزواج منه فسأعرِّضك لأبشع سحر أسود، سأصنع لك طلسماً يمنع أيّ رجل من أن يطأك. لن يقترب منك رجل طيلة حياتك، وستموتين بكراً عانساً.

كنت سأهاب تهديدها لو لم يكن ما تخيفني ببقائه على حالته قد ثقب، وأنّ الرجل قد وطأني من زمان، وما كان قد كان. لأوّل مرة فرحتُ بثقبي. كدتُ أن أبيِّن لها حالته.

- واصلت وهي ترخي يدها:

- إن تماديتِ وأصررتِ على الزواج به فسأجعلك تصيرين مجنونة.

تهديدها هذا أخافني. كنت ساعتها ضعيفة ومنهارة، حين تضعف نفس الإنسان يصبح متلقياً هشاً، ومصدّقاً لما يسمعه. وجدتُ نفسي أكاد أؤمن بما تخوّفني به. لم يسعفني استحضاري لمعرفتي البسيطة بالعلم الذي يدحض مثل هذه الخزعبلات التي

تتخيلها وتتبناها رؤوس جاهلة. فجأة شملني خوف أكبر، خوف من أن تعرف أم رشيد أنني فقدت بكارتي. قد يخبرها مشعوذ قارئ للنوايا والخبايا، هكذا تخيلت. نفس منخورة لا تملك إلّا مثل هذا الإيمان الخرع.

التقيتُ برشيد، سردتُ عليه تهديد أمه لي. ظلَّ وجهه بارداً دون تعابير محدّدة، وكانت نظرات عينيه فارغة من أي معنى.

كنت أودّ أن أقول له أنني لم أتخلّص بعد ممّا توارثته في محيطي من إيمان بالشعوذة. رغبتُ أن أفسر له أنني أجد نفسي أؤمن به رغم أنني أرفضه. الإحباط والحرمان المزمنين لا نجد تفسيراً لهما إلّا بالخرافات. ما تكوَّن لدينا من منطق يصعُب عليه أن يتقبل الفواجع المتواصلة، حينها تبقى الشعوذة مدخلاً للتفسير.

عرفتُ أنه لن يفهم فخاطبته وخاطبتُ نفسي:

- رشيد لا يمكنني أن أقف في وجه أمك.

وأنا عائدة من لقائي به، تفاجأتُ بأمه تنتظرني بباب الدرب. اقتربَت مني بخشونة معلنة أنها ستطلق العنان للسانها، ستصرخ وسط دربنا، ستكيل لي ولعائلتي شتائم واتهامات فظيعة، وستدَّعي أنها ضبطتني أمارس العهر مع ابنها في منزلها. بدأت ترفع من صوتها آمرة بأن أخلي سكة ابنها دون رجعة وإلّا...

لم أدعها تتمِّم تهديداتها. أقسمتُ لها أنني سأنسى حبه ولن أرفع إليه نظري مجدداً. لستُ أدري لِم قلت لها سأنسى حبه فأنا متيقنة أنني لم أحبه، وأنني لا أعرف الحب، ولستُ مؤهلة له.

حين أقسمتُ أمامها أنني سأهجر طريق ابنها كم كنت مُهَانة.

مَهَانة تحسّها امرأة أمام امرأة. كنت هشَّة مثل مزهرية من الزجاج. فكرت، وعلام سأتحدى المرأة وأنا لا أقوم سوى بلعبة البحث عن الحب. أنا لا أحبه. لمَ التحدي؟

يومان بعد ذلك، اعترض طريقي رشيد وأوقفني، واجهته:

- رشيد لقد عاهدتُ أمك أن أنهي علاقتي بك.

لكنني كنت متيقنة من شيء آخر، كنت متيقنة من أنني عاهدتُ نفسي أن أقطع علاقتي به. فجأة فاحت رائحة دجاج قوية أثارت لدي إحساساً مثيراً بالغثيان وبضيق في التنفس.

* * *

افترقنا، ذهب رشيد ولم أتألم لفراقه. الألم يكون حالة نفقد مَن نحب. تولاني شعور مَن أنزل من على ظهره حملاً من حجر. انشغالي بالدراسة جعلني أتناسى البحث عن الحب والخوف من نوبة ذعري.

لا أنكر أنّ خوفي من توقّف المنحة الجامعية الهزيلة إذا ما رسبت كان خلف انغماسي في الدراسة. كنت أقضي بمبلغها حاجياتي الضرورية، وأحياناً أساعد أمي وأوفر منها ما سنشتري به لحسن من مواد غذائية وحاجيات، وما سنؤديه من نفقات السفر.

احتجاجات وإضرابات الطلبة بالكلية مدَّتني بشحنة من الشجاعة. لم أنخرط مع الطلبة في نضالاتهم التي كثيراً ما كانت تتحول إلى صراعات مجانية بين فصائل تتبنى توجهات سياسية متباينة، لكنني قد أكون تشبَّعت بروح الشجاعة.

زرتُ حسن لوحدي، تسلَّحت بسكين أخفيته جيداً تحت

ملابسي. خلال لقائي به آثرتُ الحديث عن قنفوذة. شرع حسن يصفه بحاميه، وبرمز الرجولة والقوة والشهامة، وبأنه لم يعُد يخاف منذ أن أصبح تحت حمايته. وهو يمدحه كنت أتطلع في ملامح وجهه وأتمعَّن إن كان أخي قد جنّ، أم أنه غبي، ولم أكن أدري عمق غبائه قبل سجنه.

انقلبَت الدنيا في عينيه حين كلّمته عن السكين الذي أخفيه تحت ثيابي، وأرغب في أن أسلّمه له في غفلة من الحراس والسجناء. انزعج بشدّة وأمرني بالصمت، قبل أن يطلب مني الانصراف بسرعة خوفاً من أن يفطن الحراس لما أحمله، وتكون عاقبتي السجن مثله.

غادرتُ وودعته بجفاء وصوت سجين يلاحقني:

ذهبت النجمة وبقي معنا القمر لكنه لا يضيء بنوره إلّا على قنفوذة. عند عودتي والظلام قد حلّ على الحافلة تعمَّدت إسدال ستائر النافذة. صرتُ أتفادى النظر إلى القمر الذي كان يساعدني على السفر في أحلام جميلة. لم تعُد لدي رغبة التطلّع إلى أمداد السماء والرحيل في حلم ينعش جفاف روحي، وكأنّ الجفاف تمكَّن منها ولم يعُد من أمل في إحيائها، وكأنني صرت أكره القمر.

* * *

تابعت الدراسة بنجاح، حصلت على الإجازة. كنت آمل أن ألتحق بمعهد تكوين المعلمين. قبل تخرجي كانت مدرسة المعلمين تفتح في وجه الحاصلين على الإجازة، وبعد سنة من

التدريب يتخرجون مدرِّسين براتب يساعد على مواجهة متطلبات العيش.

منذ سنة صدر مرسوم يمنع على أصحاب الإجازات ولوج المعهد، والاقتصار على قبول أفواج شابة حصل أصحابها حديثاً على شهادة البكالوريا. مرسوم وزاري يهدف إلى التخفيف من النفقات كان وراء القرار. أصحاب البكالوريا سيتقاضون أجراً أقل بكثير ممّا سيتقاضاه أصحاب الإجازة وهكذا ستخفّف الحكومة من نفقاتها. كيف تترك الحكومة شباباً يشيخون في اليأس والبطالة؟ منتهى الاستهتار ممَّن يخطط. هكذا صرتُ أقدّر الأمور.

شهادتي البكالوريا أصبحت تُعتبر قديمة، وإجازتي من كلية الآداب لا تمكِّنني من الحصول على عمل ولو بسيط. تخصُّصي لم تعُد له من آفاق، حتى خريجي كلية العلوم من شعب الفيزياء والرياضيات والكيمياء يعانون من البطالة فكيف بخريجي شعبة الآداب؟

أبواب العمل مقفلة في وجهي ووجوه أمثالي. لا أعرف أين أتجه.

انخرطت مع أمثالي من الخريجين في نضالات واحتجاجات وتظاهرات قلب المدينة، في محاولة لإجبار الدولة على أن تجد لنا حلاً. كنا بالمئات.

تجري الرياح بصرخاتنا على أسطح بنايات المدينة وبين شوارعها ولا مَن يسمعها. من حين إلى آخر نسمع خبر توظيف شخص في بلدية المدينة أو في شركة الكهرباء أو في مؤسسة

أخرى، لم يتحمَّل ولو عناء الصراخ معنا يوماً، فنخرج نصرخ من جديد دون نتيجة. العديد من الخريجين أمثالنا ينتمون إلى عائلات نافذة كانوا يُشَغَّلُونَ في مناصب بإدارات المدينة إمّا من طريق الرشوة أو بواسطة علاقات خاصة.

كنا نجعل من الوقفات الاحتجاجية، والاعتصامات في الشوارع وأبواب النقابات مناسبة لنخفِّف ما بأنفسنا. نواسي بعضنا بعضاً. أغلبية المعطلين ينحدرون من أوساط معوزة. «خَايْ احْمْدْ الفَسَادْ» طال انتظاره للعمل. كنا نناديه بهذا اللقب لكبر سنه مقارنة بنا، وبما يعرفه عن أخبار الفساد بالمدينة والإقليم والوطن.

قيدوم المعطلين هذا كان حلو المعشر والحديث. وقفة احتجاجية من دونه تمرّ دون طعم. كل وقفة وهو معنا كنّا نستغلها لنعرف ما جدَّ من أحداث الفساد.

«تمّ توظيف ابن رجل سلطة في إدارة البلدية... بنت أحد أعيان المدينة في إدارة المالية... حصول أحد المعطلين الذي كان يشاركنا الاعتصامات على وظيفة بعدما دفع لنائب رئيس البلدية ملايين كرشوة... بنت كاتب عام لنقابة تحصل على منصب كبير بشركة الكهرباء رغم أنّ تخصّصها لا يناسب المنصب...».

يضحك خَايْ احمد وهو يؤكد أنّ من يحصلون على الوظائف كلهم ينتمون إلى أسر غير معوزة. يصف لنا كيف أصبح رؤساء مجالس بلدية تطوان والمضيق والفنيدق ومرتيل أثرياء بعدما لم يكونوا يملكون من قبل سوى رواتبهم الشهرية. يدقق فيما أصبحوا

يمتلكون من عقارات ورخص وأرصدة في اسمهم واسم أقاربهم. يتطرَّق إلى الأجور الخيالية للموظفين الكبار في الإدارت العمومية والقطاع الخاص بربوع الوطن، مبالغ بعشرات الملايين.

يقطع استرساله في الكلام ليبصم على قوله:

- ولا من يَنْهَى ولا من يَنْتَهي... لا مَن ينهى عن الفساد ولا مَن ينتهي من الاستفادة من الفساد.

يتأسف ويضيف:

- ولا محاسب... ولا مراقب...

كان ينفعل من حماس الغضب وهو يسرد ما تنشره بعض الجرائد من فساد في الإدارات العمومية وإدارات القطاع الخاص، والتنديد باقتصاد الريع من توزيع أراضي الدولة على كبار الملاكين، واستغلال الرخص التي تدرّ الملايين سواء في برّ الوطن أو في بحره... تتغير نبرة صوته يغلفها الأسى:

- ولا من يَنْهَى ولا من يَنْتَهي.

يوماً كان يكرِّر على مسامعنا عدّ ملفات الفساد حين اعترتني رجفة ورغبة في الصراخ. أسرعتُ بالخروج من قلب التجمع، محاولة كبح الضغط الماحق على نفسي. التجأتُ إلى مقهى طلباً لكوب ماء. يومها لم أكن قد وجدتُ درهماً واحداً أؤدي به ثمن تذكرة الحافلة، ولم أكن أملك مطرية تقيني المطر الذي خضتُ تحت وابله الطريق من منزلنا إلى مكان التجمع، فوصلت وملابسي تقطر ماء.

لم يكن خاي أحمد يسرد علينا أخبار الحزن فقط، فهو لا يدعنا نروح لمنازلنا قبل أن يروِّح عنا ببعض النكات، وبسرد حكايات تُضحكنا وتُضحكه حتى تغرورق عيوننا وعيناه بالدموع. نضحك أكثر بعدما يشرع في السخرية من أمه، ومن تأنيبها اليومي الذي يفرع رأسه كما يقول، تعيِّره ببطالته وبكسله وبثقله على قلبها، ثم تختم قولها إن أسياده المتخرجين مثله كلهم حصلوا على عمل إلّا هو.

كان يحاول أن يواجه ما هو ضده في الحياة بالاستهزاء. لكنه كان هشاً مثلنا، فنفد وقود صبره. غابت ضحكاته ودعاباته. قال إنّ ضيقاً يفوق أيّ ضيق يجهز عليه. صار يهمل نفسه بشكل جعلنا نتخوّف على قواه النفسية، قوى سرعان ما خارت وتهشَّمت، فاعتراه اضطرابٌ جارف اكتسحه ضربة واحدة حتى أضحى شبه مجنون، بوجهٍ مهمل وملابس متَّسخة يرفض تغييرها.

عددٌ من المحتجين ملّوا من طول الانتظار والاحتجاج. القليل منهم التجأوا إلى أعمال وضيعة. أمثالي ممّن لم يجدوا البديل، ولا يملكون ما يمكنهم من فتح مشروع جدّ صغير، تركوا خيطاً من الأمل في الاحتجاجات والاعتصامات.

* * *

تملَّكني الرعب من أن تكون نفسي قد جفَّ حنانها، وصارت منشفة امتصاص لأحزان الدنيا المتناثرة حولي كالرذاذ.

لأكسر ما حُشر بأحاسيسي من حزن واحتلّني عنوة دون دعوة، لن أظلّ أحلم بزوج يسترني، يستر فقري وجوعي للرجل.

إنني أرغب في أن أحبّ، ولو أن حياتي وحياة مثيلاتي في مجتمعنا لم تُصنع لتعيش قصص حب، بل قصص زواج.

رغبتي في الاقتراب من الحب كانت لمحاولة كسر ما يطبق على قلبي من يأس وملل.

من المؤسف أن نعيش البحث عن الحب عدّة مرات عوض أن نعثر عليه من أول مرة، فتكون المرة الأولى والأخيرة. حظّ نادر. والمؤسف أنّ ما هو جميل في عمري يمرّ وما هو جميل في جسدي يهرم، وأنا ما زلت أبحث دون جدوى.

حين نحبّ يصير أملنا أن نخاطب مَن نحب:

- خذني بعيداً ممّا أنا فيه، وإنني في الدنيا من أجلك فقط.

أتمنى لو ألتقي برجل أقول له هذا، فيتفهّم حالتي، ولا يدعني أسيرة سرّ ثقبي وسر حال أخي حسن. يتقبّلني على علاتي. أحتضنه، أقرّب فمي من أذنيه وأحكي له، أحكي له. أبكي أمامه وأنا أحسّ أنني أحتمي بحق برجل يحميني من لسعات أمثاله من الرجال، ومن لسعات الزمن. يتقبل ضعفي ويعانقني بقوة. أقصى ما أتصوّره من درجات الحب. لو أعلم أن محمداً بهذه الخصال لكنت وجهت قلبي نحوه وأجبرته على حبه، فأنا تعبت من الانتظار وتحضير نفسي لحبيب منتظر غائب.

دون توجيه مني وجدتني أتطلع إلى محمد خلال لقاءاتنا في أثناء الاحتجاجات. كنت في حاجة، إلى عشق رجل، إلى رائحة رجل. جميل لو تشتعل الفتيلة بيننا ويملأ محمد حاجتي من تلك

الرائحة. أتطلع إليه، وأنا أمنع نفسي من أن تتمسّك بقمع رغبتها في أن تقول له خذني بعيداً من هنا. أبحث فيه عن حبّ يعطل حيرتي وأحزاني ويشغل القفل الصدئ لصناديقي. فتحتُ أبواب قلبي، وقلت ليكن الحبّ عبره، وليُسكت استغاثات جراحي. قرَّرتُ أن أبحث فيه وعنده عن امتلاء لكلّ ثقوبي.

لم تدُم علاقتي بمحمد أكثر من شهر. الحب عندنا جُبِلَ على أن تنتهي مدّة صلاحيته سريعاً. لم أجد متعة الحب معه منذ البداية، وأجمل حب يظهر منذ البداية، فكيف أواصل؟

ما كان يدّعيه محمد من فكر ورُقِي إنساني، سرعان ما كفر به حين تطرقنا ذات حديث إلى غشاء البكارة. قال وهو يتفحّصني بعينين زرعتا برداً بين أحشائي، إنه يُعزِني لأنني كباقي الفتيات المحترمات اللواتي يعتبرن البكارة حاجزاً مقدّساً، وأنه يقدِّر كلّ فتاة تحافظ على شرف ما بين فخذيها في مجتمع غول تأكل وحوشه لحم الإنسان، ويتلذَّذ رجله بتهشيم القطعة الجلدية الصغيرة بين فخذي أنثاه.

كنا جالسين في مقهى، وكان يتكلم عن الشرف وقد جحظت عيناه وتلبّدتا بغلالة منفرة، وهو يشير بيده إلى ما بين فخذي. لم يشِر إلى ما بين فخذي آنذاك، لكنني رأيته يفعل. قرَّبت فخذي من بعضهما حتى لا أمكِّنه من أن يكتشف ثقبي. ما يتشدّق به من حداثة، وما يدَّعيه من اكتواء بالوعي الشقي كمثقف عضوي ومسؤول، يمحوه بتقديس غشاء أنا فقدته باكراً، وهو لا ينمو بعد ذلك.

نفير في قلبي يُنذرني منه بعدما كان نفير فرح به.

تذكرت كيف تكون حالته عندما يجالسني. شددتُ مرة على يديه لا لأهيئه للذة، بل بحثاً عن دفء وعاطفة ما. سرَّب يده بعنف إلى ما بين فخذي.

صار بعد أن يسرق مني قبلاً، يمدّ يده ليضغط على يدي ثم يسرِّبها إلى فخذي، قبل أن يحاول إدخالها بينهما. آنذاك تنفر عروق يديه وعنقه وتجحظ عيناه وكأنه ينوي مهاجمة عدو، فيستنفرني ثقبي مخافة من أن يصل إليه رغم أنني مدثّرة بالملابس. أرتمي على يده وأبعدها عني بكلّ قوتي.

أحياناً وهو يسرد عليّ كلمات منمقة وخواطر، يطلب مني أن أبدي رأيي في شعره. كنت أظنّ أنّ كلّ الشعراء وكلّ عشاق الشعر طيبون، يحضنون الآخر كما يدعون أنهم يحضنون الألم، لكن شاعري لا يهتمّ بمثل جرحي. أمثاله في الجامعة هجروا حبيباتهم وعشيقاتهم ، بعدما نظموا لهن أشعاراً وأفقدوهن بكاراتهن، ثم نصحوهن بالابتعاد عن طريقهم، لأنهم شعراء لا يتقنون سوى الاحتراق والبكاء على الحياة والموت... هؤلاء انبعثوا من رمادهم، بعدما تخرّجوا واشتغلوا. صرفوا محبوباتهم، وراحوا يبحثون عن فتيات لم يسبق لهن أن عشقن، أو أحببن، أو اطّلعن على عري رجل ولو عبر الصور في المجلات، ليعرضوا عليهن الزواج.

ما محمد إلّا مثل هؤلاء. ربما كنت ذكية ، فأنا لم أدفع غشاء شرفي لمَن يمطرني بنعيق كاذب ثم يتخلى عني.

في لقائي الأخير به حدّثني عن الحقوق المهضومة، والدماء المهدورة لشعوب وأفراد من مختلف بقاع العالم. خفتُ إن علم بثقبي أن ينظر إليّ كمجرمة، ويصبح دم بكارتي الذي انتُهك مني عنوة عربون جريمة ارتكبتها أنا في حقّ الإنسانية والبشرية جمعاء.

لو عرف أنني لستُ بكراً لظلّ يجلدني بلسانه طيلة الحياة، وربما يخبر كلّ مَن يعرفني ومَن لا يعرفني، ويلقي بدموعه أمام كلّ مَن يلتقي به لاعناً عشقه لمومس، أنا، ليظهر بشخصية الضحية الذي كان مستعداً للتضحية بكلّ شيء من أجل حبها، لولا أنها عاهرة مثقوبة.

* * *

كرهت الاحتجاجات والتظاهرات يوم التحق بنا خاي احمد الفساد وعلامات اضطراب نفسي واضحة عليه. وقف بيننا وصرخ بشدة وبهستيريا لا مَن ينهى ولا مَن ينتهي... لا محاسب ولا مراقب.

اضطر بعض الشباب للتدخل وسحبه خارج الحلقة، ومحاولة تهدئته. هذا المشهد جعلني أتخيَّل أن الجنون قريب جداً مني. أسرعتُ منسحبة من التجمّع وأنا أرتعش، وبوادر نوبة الذعر تنخر ما كنت بَنَيته من طمأنينة. عادَ الخوف من الجنون يعكِّر أيامي. بدأتُ أتجنب الاعتصامات. لم أعد أستطيع المكوث قرب سي احمد أو الحديث معه. لا أخاف منه و لكن أخاف من أن أجنّ مثله، أخاف أن يعديني.

تفاقم رهابي من أن أجن. ذهني صار يحيلني على صورة كلّ

مجنون أعرفه، أكيد سأجن مثله. لم أكن أجد تفسيراً لما يحدُث لي.

قد تقودنا ظروف صعبة إلى أن ندوس كرامتنا، ونقبل بالانحناء لمن لم نظن يوماً أننا سننحني له. قاطعتُ الاعتصامات والاحتجاجات، وقرّرتُ أن ألتجئ إلى وسيلة أخرى. كانت إدارة البلدية قد شغلت من جديد عدداً من الشباب بطرق ملتبسة. أصدرت جمعية المعطلين بياناً «شديد اللهجة» تهجَّمت على مسير البلدية، تبعه احتجاج في الشارع فرَّقه رجال الأمن بعنف.

قررتُ التوجه لقصر البلدية. هناك رئيس جديد للمجلس البلدي أفرزته الانتخابات البلدية الأخيرة. برق لي أمل بعدما نجح حزب من اليسار وانهزم الحزب الذي كنا ننعته بالإقطاعية والانتهازية. كان الرجل قد اشتهر بالحديث خلال اللقاءات الحزبية والنقابية عن أجرته التي لا تمكِّنه من شراء حذاء جديد. عرف عنه في الاجتماعات النقابية أنه ينزع حذاءه ليُري الحاضرين مدى تهالكه. قضيتُ عدة أيام وأنا أحضر للبلدية كلّ صباح محاولة اللقاء به. بعد أكثر من أسبوعين من الانتظار، قررتُ ذات صباح أن أودِّع اعتزازي بنفسي وأعتصم بباب مكتبه. بعد إلحاح وصراخ مع الحارس دخلتُ المكتب. كان الرجل منكبّاً على تصفّح ملفات أمامه. سألني ما الذي أرغب فيه وهو لم يرفع رأسه عمّا نثر أمامه من أوراق.

انطلقتُ وكأنني اعتبرتها فرصة لا تعوَّض للكلام، عرَّفته بنفسي وانطلقتُ أحكي ما بين التوسّل والرجاء عن حالتي، وعن فقر أسرتي، وعن سجن أخي وعن انعدام فرص العمل أمامنا نحن

الفقراء رغم تخرجنا من الجامعة. طريقتي المتواصلة في الكلام دفعته ليتوقف عن النظر في الأوراق وليتطلّع إليّ. التمستُ منه أن يجد لي عملاً في إدارة البلدية كيفما كان نوعه.

بعدما أخبرني، وهو يرسم على وجهه بصمة أسى، بأنه لا يمكنه ذلك، رجوته أن يجد لي عملاً في الإنعاش، أنتعش به، لم يكن العمل في الإنعاش عملاً، عمل مؤقت قد يكون شاقاً يتقاضى عنه صاحبه مساعدة من مئات دراهم قد لا تفي بأداء مستحقات استهلاك الماء والكهرباء.

أكّد لي الرجل أن البلدية تعيش أزمة في الموارد المالية، وأنه لا وجود لاستثمارات بالمدينة، وعليّ أن أنتظر ميزانية السنوات القادمة، ربما توفّر مناصب شغل في الإنعاش الوطني. كنت أعلم أنه منذ وقت قريب وظف بالبلدية عدداً من المنتسبين إلى حزبه، كما حصل مجموعة من أقاربه وأقارب أعضاء حزبه على مناصب في البلدية وفي شركة توزيع الماء والكهرباء بالمدينة. سردتُ عليه أسماء أشخاص تمَّ تشغيلهم، كلهم من عائلات ميسورة إن لم تكن جدّ ميسورة، ابنا أخ نائب الرئيس وابنة محام وغيرهم... العديد منهم لا يملك شهادة جامعية مثلي. كما قلت له إن البلدية مكتظة بموظفين أشباح يتقاضون أجرة ولا يلتحقون بالعمل.

قاطعني الرجل وهو يتحدث في غضب أنني تجاوزتُ حدودي، وأنّ مكتبه ليس وكالة لطلب العمل، وأنه من الأفضل لي أن أغادر مكتبه.

في الشارع كانت رشات المطر الخفيفة تبلّل وجهي، وتُخفي

ما يصبغه من كدر، وما تفرِّغه عيني من دموع. ظلت الدموع تتسابق من عيني وتمتزج بماء المطر. لم أرغب في أن أمحوها.

* * *

وحده العمل في التهريب بباب مدينة سبتة وجدته ملاذاً. لم أتردَّد حين زارتني نجية تطلب مني أن أشتغل بمعيتها بالذهاب إلى مدينة سبتة المستعمرة من إسبانيا، ومشاركتها في إخراج وتهريب السلع إلى مدينة تطوان.

نَجِيّة جارتنا امرأة مطلقة وأمّ لطفلين صغيرين، تمتهن التهريب منذ أن تخلى عنها زوجها. أبدت إعجابها بي كوني أكملت دراستي الجامعية رغم فقر عائلتي، رأت من الواجب عليها أن تساعدني لأنقذ نفسي وعائلتي، خاصة وأن أخي معتقل. استنتجتُ أنها كانت في حاجة الى امرأة ثقة تساعدها في تجارتها. وافقت دون تردّد.

أخذتُ نسخة من شهادتي الجامعية ووضعتها في حقيبة يدي. فكّرت أنها قد تساعدني في العبور، فعرضها على رجال أمن الحدود قد تجعلهم ينظرون بعين العطف، ويغضّون البصر عمّا نقوم بتهريبه.

في الطريق اكتشفتُ أنّ الطريق الشاطئية قد تغيّرت. الأشجار التي كانت تؤثث الأراضي المحاذية لرمال الشواطئ من المضيق إلى الفنيدق اختفت. أكواخ جميلة من الخشب لم يعُد لها من أثر. بنايات وإقامات سكنية وفيلات فخمة عديدة أنشئت على الشواطئ أو في طور الإنشاء.

كان علينا أن ندخل مدينة سبتة في الصباح الباكر، عادة وقت الفجر. هكذا يشترط علينا الشريف صاحب مجموعة من متاجر للمواد المهرّبة بمدينة الفنيدق الحدودية. يُشاع عنه أنه كسب ثروته من تهريب المواد الغذائية، وتزوير تاريخ صلاحية الفاسدة منها، كان يشتريها بأثمنة بخسَة من مخازن بمدينة سبتة ويهربها إلى الفنيدق، ثم يقوم بتغيير تاريخ صنعها، وتاريخ انتهاء صلاحيتها، قبل أن يُعيد توزيعها وبيعها في باقي مدن المغرب.

كان الرجل الذي يتدثّر دائماً بلباس مغربي تقليدي ويُطلق العنان للحيته يعاملنا بلطف. وفر لنَجِيَة سيارة مهترئة من النوع القديم لنهرِّب بها السلع التي يرغب في تهريبها. باستخدامنا للسيارة كنا أفضل من الكثيرات والكثيرين الذين يعملون معه، والذين يهرِّبون مختلف السلع محمولة على ظهورهم.

كانت أول مرة أصل فيها إلى باب سبتة. في اليوم الأول ظللتُ مشدوهة أحدِّق في أفواج من مئات الرجال والنساء والأطفال تعبُر الحدود لتعود حاملة على ظهرها أنواعاً مختلفة من البضائع. نساء في مثل سنّ أمي وأكبر وأخريات صغيرات وشباب وشيوخ وأطفال، كلهم يعولون على باب سبتة كبابٍ لرزقهم. يهرِّبون أغطية وألبسة ومواد ميكانيك ومواد غذائية ومواد تجميل... منهم مَن يشتغل لحسابه، ومنهم مَن يشتغل لحساب مهرّبين كبار... معظم السلع رديئة من إنتاج الصين.

الدخول والخروج إلى مدينة سبتة وَصَمَ نفسي بجراح جديدة. كنت أشمئزّ من مشاهدة نساء يتقاتلن دفعاً وجرياً للدخول

أو الخروج من باب العبور وفوق ظهورهن أثقال وأحمال، وسياط رجال الأمن الإسباني تارة، والمغربي أحياناً تنزل على أطرافهن وظهورهن ورؤوسهن. تعنيف يخلّف مِراراً عدداً من الجرحى.

نجية التي كانت تقوم بسياقة السيارة أشارت لي منذ اليوم الأول من العمل أننا محظوظتان ما دمنا نملك عربة نُخرج بها السلع المهربة، ولا نتزاحم ونُضرب مع الوافدين والوافدات وقت العبور. كان العبور سهلاً بالنسبة إلى أصحاب السيارات حتى ولو كانوا مهربين.

نحن كنا نقوم بتهريب مواد تجميل مزوّرة ومواد غذائية. حلويات ولوز وفاصوليا وتوابل... وجبن وزبدة.. كنا نملأ كل فراغ متاح داخل السيارة، فوق المحرك وتحت الكراسي، وفوق السطح وداخل الصندوق الخلفي. درهم واحد للكيلو عمولتنا. نقوم بثلاث عمليات عبور في اليوم، ونحقق أرباحاً يومية لا بأس بها.

إلى جانب رفع الأكياس وإفراغها، كنت أقوم بعملية المحاسبة مع البائعين الإسبان أو المغاربة داخل سبتة ومع صاحب المتجر، لكن مهمتي الرئيسة كانت التعامل والتفاهم مع مَن نسمّيهم أصحاب الطريق. نجتاز عدة حواجز، وعلينا أن نقدِّم عند كل حاجز المبلغ المناسب كرشوة بحسب أهمية الحاجز، والسلع المحمّلة والشخص الحارس.

في الحواجز التي أسميها الباردة والتي تقتصر على عنصر أو

عنصرين من رجال الحراسة أرتب الأوراق المالية من فئة 20 درهم أو 2 أورو. أشرع في تقديم أوراق هذه الفئة سواء إلى رجال الحراسة من الأمن الإسباني أو المغربي إلى أن أصل إلى حاجز الجمارك، ساعتها أشرع في التفاوض بحسب الحمولة التي نحملها. يصل الثمن المقدّم إلى مائة درهم أو أكثر وذلك تحت التهديد بمصادرة كلّ ما نحمل وحجز السيارة مع أداء غرامة مالية مرتفعة.

عندما لا يقنع المسؤولون عن الحواجز بما أعرضه عليهم من نقود أقوم بإخراج صورة شهادتي في الإجازة من الجامعة مع إلحاحي في الاستجداء. كانت قلوب بعض رجال الجمارك تحنّ علينا فيقومون بتخفيض قيمة مبلغ الرشوة، لكن رجل الجمارك الملقّب بالقط رمى مرة صورة الشهادة حين قدّمتها له وهو يقول إنه يرغب في أوراق نقود. احتججتُ عليه فاغتاظ وصادر سلعنا. صاحب المتجر كان رجلاً يتقبل مثل هذه الخسارات، فإذا ما صادر رجال الجمارك سلعتنا كان يتقاسم معنا الخسارة.

بلغني أنه مرة كلّ ثلاثة أشهر كان يتمّ الاتفاق سراً بين الشريف والمرتشين من أصحاب الطريق بمصادرة سيارة في ملكه محمّلة بمواد مهرَّبة. يتم اختيار سيارة لا قيمة لها وعادة من دون أوراق ثبوتية، تملأ ببعض السلع الفاسدة، ثم تُضبط وتُصادر من طرف الجمارك، بينما عدة سيارات أخرى محمَّلة بسلع ذات قيمة مالية مرتفعة تكون قد اجتازت الحدود. كانت طريقة للتضليل تتمّ مع كبار المهربين.

بعد خصم النفقات كنا نحقّق ربحاً صافياً يصل يومياً إلى

حوالي ستمائة درهم، نتقاسمه ثلثاً لي وثلثين لنجية. كنا نشعر بلذة الربح رغم التعب والقلق والإهانة.

استطعتُ أن أحقّق دخلاً ساعدني على تغطية بعض نفقاتي، ونفقات أمي ومصاريف أخي السجين، ونقود الجيب التي كنت أزوّد بها أخي كريم. كما أنني فتحت حساباً للادّخار في البريد.

لست أدري ما الذي عشقَه فيَّ ذاك الموظف برتبة مقدّم من حرس الحدود من بين العديد من النساء العابرات للمعبر. في البداية أبدى بي إعجاباً قابلته بابتسامة وشكر. واصل برعونة في المرات التالية تحرّشه بي وأعلن لي رغبته في اللقاء بي. لستُ عوداً جافاً والرجال لا يعشقون النساء المكتنزات فقط. كان الرجل في حوالي الخمسين من عمره. نجية حدّثتني عن ارحيمو التي كانت تمتهن التهريب مثلنا وأغرم بها مفتّش من الجمارك وتزوّجها زوجة ثانية. قالت لي إنّ الموظفين بباب سبتة عادة يغتنون سريعاً من عملهم، وارحيمو تعيش الآن في سعة من العيش مع زوجها ولها منه أبناء.

شجَّعتني نجية على اللقاء به. في طريقي للقائه بمقهى على شاطئ البحر بمرتيل، رحت أفكر أنني قد أقبل به زوجاً حتى ولو كان متزوجاً. لا مطالب لدي سوى القليل من الدفء والسكينة. جلستُ أنتظره في المقهى.

قرب المقهى وقفت سيارة فخمة، ونزل الرجل ببدلة رياضية يتلاعب بمفاتيح في يده. رأيتُ في طريقة حضوره للقائي نوعاً من التعالي. أحسستُ ببعض القرف.

بعد الجلوس خاطب النادل بأنه سينصرف في الحال، ولا يرغب في تناول أيّ مشروب قبل أن يرمي إليه بثمن مشروبي. اقترح عليَّ بكلام يحمل غير قليل من الأمر أن ننهض ونغادر المقهى. سألته إلى أين؟

أجاب:

- سنذهب إلى المنزل.

تذكَّرت كيف كانت قد أكَّدت عليّ العاملة المنظّفة في المحكمة أنّ القاضي يلحّ عليّ أن ألتقي به في منزله، وأنه يرفض اللقاء بي في الشارع أو في أي مكان آخر درءاً للشّبهات.

انقبضت روحي ووجَّهت له سؤالاً:

- ماذا سنفعل في المنزل؟

غلَّف وجهه بتكشيرة محاولاً أن يمسح تجهّمه وهو يجيب:

- ما يفعله رجل وامرأة ثالثهما الشيطان.

غصص الإهانة لا تنتهي في حياة فتاة تنتمي إلى مجتمع مثل مجتمعنا. ما تعلمته من قيم عليّ أن أعتبرها غباراً يذروه الريح، الريح السائد والمسيطر على حياتنا. عليَّ أن أتقبَّل حتى أعيش.

خفتُ إن أنا شتمته أن يتعرّض لي بسوء. قمت، توجَّهت نحو النادل وأصررتُ أن يأخذ مني ثمن المشروب ويردّ للرجل نقوده، غادرت. لاحقني غضبه مستهزئاً بي. لم أردّ.

بباب سبتة حاولتُ ما أمكن تجنب عبورنا لحظة وجوده بالمعبر، لكن وردية عمل موظفي الحراسة تتغير ولا نستطيع معرفة

توقيت عمله، فكان أن صادفنا وألزمنا بالتوقف وإنزال ما نحمله من سلع لمصادرتها. ترجَّته نجية كما استرحمته أنا. أهانني بكلام مهين قبل أن يسمح لنا بالمرور شرط أن أزوره بمنزله بمرتيل في المساء. نجية منفعلة وخائفة من تهديده كلَّمتني ساعتها بلطف بأنه علينا أن نأخذ حذرنا ونعرف كيف سنتصرف، لكنها حاسبتني بقسوة يوم صادر كلّ سلعنا لأنني لم أذهب إلى زيارته. خطابها كان فيه ما يكفي من الوضوح. بانفعال تكلّمت وهي تمضغ غضبها ولا تنظر إليّ:

- أتظنين أن الحاج الشريف قدَّم لنا السيارة لنشتغل بها لجمال عيني. كلما رغب في أن يضاجعني يطلب مني ذلك وأنا ملزمة بأن ألبي طلبه.

اعترافها كان صدمة لي. كانت ترغب مني أن ألبي طلب الرجل حتى نتمكّن من مواصلة عملنا، وأنا لا أريد أن يصبح ثقبي مورد رزقي. يكفيني ما جنيته من خيبات من ورائه. لم أجد بداً من أن أنسحب من العمل مع نجية بباب سبتة، رغم حاجتي الملحَّة إلى ما كنت أحقّقه من مداخيل كانت تكفي لتغطية الحاجيات اليومية لي ولعائلتي.

استدعاني الشريف صاحب المخازن، حكيتُ له، وعيوني تكاد تدمع ورأسي منخفض لما تعرّضت له. عرض عليّ الاشتغال في مخازنه بمدينة الفنيدق. ظللتُ برفقة امرأتين طيلة صباح نغيّر تاريخ صلاحية المواد الغذائية الفاسدة المهربة، ونضعُ خاتم تاريخ حديث على أغلفة التعليب بواسطة آلة طابعة مستوردة. بعد ساعتين

وإحساسي بضيق، امتنعتُ عن العمل وانسحبتُ من دون أن أطلب أجراً.

* * *

أمي لم تستوعب قرار انسحابي من العمل مع نجية. لم أذكر لها السبب. انتفضَت في وجهي واتهمتني بأنني بليدة أغلق باب رزقي الذي انفتح لي. أعرف أنها ستجعل باقي أيامي معها لا تُطاق. سلَّمتها مبلغاً ممّا ادّخرته لعلها تصمت وترضى عني. لم تفتأ تذكّرني بأن رضى اللّه على عبده لا يتأتى إلّا من رضى والديه عليه. كرهتُ نصيحتها.

تفاجأتُ حين زرت والدي في سوق الخضر فوجدته نائماً قرب كومة من البطاطس كان يبيعها. بدا متعباً يشدّ على صدره حين أيقظته. أياماً بعد ذلك لم يعُد يستطيع التوجّه إلى السوق. بعدها بأسابيع اشتكى من ألم حادّ في صدره. ليلتها أخبرنا بأنه يشاهد ملك الموت بجواره.

خرجتُ أبحث عن سيارة تقلّه إلى المستشفى. السيارات لا تدخل دروب المدينة القديمة. بعد تعب ومشي وئيد أوصلناه إلى باب الدرب. رفض سائق سيارة أجرة نقله حين عاين حالته. أمام احتجاجي وقبضي على باب السيارة قَبِلَ على مضض. بالمستشفى جلس على كرسي من حين إلى آخر يغفو. كان ضجيج المستشفى كضجيج سوق الخضر. قيل لنا إنّه في حاجة إلى ولوج غرفة إنعاش داخل قسم المستعجلات. ذلك ما أخبرنا به طبيب المداومة قبل أن يقول إنّ كل أسرَّة الإنعاش ممتلئة بالمرضى. لا

سرير آخر لديهم في المستشفى. غادرنا الطبيب لينظر في حالات مرضى آخرين. والدي أمامي يفقد الحياة وأنا مندهشة لا أدري ما أفعله. حاولتُ أن أنادي على طبيب أو ممرض. لم يستجب لندائي أحد. مريضة أمامي سقطت أرضاً تتلوى من الألم، لا أحد أسعفها، ظلّت تتلوى ممّا بها من ألم. انشغلت بحالة شاب أحضر والدم يتناثر من عنقه المذبوح، قال أحد محضريه إنه تعرّض للسرقة والضرب بسكاكين بعدما كان عائداً إلى بيته. كأنني قلب كابوس. كنت حائرة قرب أبي وهو ينزع شهقات تنفّس بطيئة من صدره وعيناه مغلقتان. بمساعدة عامل نظافة مدَّدته على سرير مهترئ. ذهبتُ أبحث عن الطبيب. حين عدتُ كانت ملامح والدي غائرة، ووجهه اعتراه اصفرار حادّ. كان قد فارق الحياة.

ما تبقى لي من ادّخار صرفته في الإعداد للجنازة. أمي أصبحت بركاناً لا يتوقف عن التقريع، في وجهي ووجه أخي كريم.

أخي كريم الذي ملَّ من تقريعها وتغريدها عن رضى الوالدين غادر المنزل، وأقام مع صديق له في كوخ على شاطئ البحر بقرية أمسا. حسدته على قراره. أفكر في مغادرة المنزل، في الهجرة، لكن لا طريق أمامي يغريني ويشجّعني على قراري. لا أعرف أين أذهب ولا مَن أقصد. أخاف.

* * *

استيقظتُ متعبة على نقير لسان أمي. ينزل ثقل كلماتها كطرق مسامير قلب رأسي. صباحٌ ضبابي. أحدِّق في السماء المدلهمة

بالغيوم. أوحيتُ لنفسي أن ما بي من اكتئاب يرجع إلى ما تبثّه السماء من غيوم رمادية داكنة، وليس إلى ما تبثه أمي من تقريع من دون سبب. رميتُ أسباب اضطرابي إلى اضطراب الجو الذي حلَّ إعلاناً بحلول بداية فصل الشتاء وقررتُ مغادرة المنزل.

من دون أن أتناول فطوري خرجت. نثرات من ماء مطر خفيف. قصدت وسط المدينة راجلة. رغبتُ في أن يغسلني المطر الطفيف. وجدتني قرب باب وكالة البريد. قررت أن أدخل لأزور مريم صديقة الدراسة ربما لأخفّف ما بي. كنت معجبة بعفويتها وبساطتها وتواضعها الكبير. لم تكمل دراستها فتدخَّل لها قريب ذو وزن سياسي كبير وشغلها بإدارة البريد.

وجدت سيدة بأناقة فاخرة قد وضعت حقيبة يد فخمة على مصطبة شباك العمليات تتحدث مع مريم. المرأة جميلة في مقتبل العمر تظهر عليها علامات الثراء. لم يكن من زبناء ساعتها. أخذ بنا الحديث إلى أن صرّحت السيدة أنها في حاجة إلى امرأة ثقة، لخدمة أمها المسنّة بعدما رحلت خادمتها. نظرت نحوي مريم وكأنها تنبِّهني إلى طلبها. حالتي لم تكن تخفى عليها، فكثيراً ما شكوتُ لها همومي وإملاقي.

أشارت صديقتي على المرأة التي عرفتُ أنّ اسمها حنان، أنني قد أكون الخادمة التي تبحث عنها. لم أتردَّد في القبول. ادَّعت المرأة أنها استحسنت حديثي معها، وتتمنى لو أكون مرافقة جيدة لأمها، قبل أن تتابع أنّ أمها امرأة طيبة حلوة المعشر. وعدتني السيدة بأجرة تماثل أجرة موظف متوسّط بالإدارات العمومية.

أمي التي لم تستسغ أن أصبح خادمة، سرعان ما تنازلت عن موقفها الرافض حين رأتني عازمة على الرحيل، وأنا أجمع ملابسي وأضعها في حقيبة.

تدور في ذهني عشرات الصور وأنا جالسة مع السيدة في سيارتها السوداء الفخمة رباعية الدفع. كنّا متوجهتين إلى منزلها بشاطئ بلدة القصر الصغير.

بعد عبورنا مدينة الفنيدق وإطلالتنا على تلال مدينة سبتة، عرجنا على الطريق المؤدية إلى شاطئ بلدة القصر الصغير. مناظر طبيعية خلابة تسري عن النفس وترهبها أكتشفها لأول مرة. طريق ملتوٍ كأفعى بين الجبال والبحر. كان لون مياه البحر يميل إلى السواد. صور ضبابية لجبال وتلال إسبانيا تضع حداً لامتداد الماء الأزرق الأسود. إسبانيا غير بعيدة، زورق بمحرك قد لا يتعدى ساعة للوصول إليها.

بعد مسير نصف ساعة عرجت السيارة على منحدر جهة البحر. مسافة قصيرة قبل أن نتوقف أمام باب كبير من حديد يتوسط سوراً طويلاً مرتفعاً تعلوه أسلاك شائكة. فتحه الحارس وهو يحدِّق في وجوهنا قبل أن يحيي السيدة بأدب ويدعونا للعبور. طرقٌ نظيفة تعلو أطرافها شجيرات وأزهار مختلفة الألوان. رائحة البحر غامقة كلونه. من جهة اليسار تمتد بنايات كإسطبلات ومخازن. جرار وآلة حصاد وخوار البقر. على اليمين وبعد مئات الأمتار وخلف أشجار سرو باسقة يقبع منزل واسع تزين سقوفه قبب بقرميد أحمر، من حجمه وفخامته يظهر كأنه قصر صغير.

ولجت السيارة الباب الثاني المفضي إلى ساحة المبنى. المنزل عبارة عن فيلا كبيرة على تخوم البحر. قبل أن أعجبَ بالهدوء الذي يكتنف المكان، وأن أستشرف فيه بعض السكينة، طرق نفسي إحساسٌ منفر غريب من الخوف.

بجانب حديقة الفيلا قصدنا منزلاً صغيراً وجميلاً، عرفتُ أنّه مخصّص لإقامة للّا خدوج أم صاحبة الدار. يحدّ به منزل مخصّص للخدم. استقبلتني المرأة مرحِّبة، وجدت في كلامها عفوية أوحت لي بطيبوبتها. خمَّنتُ أن عملي سيكون مريحاً، مؤانسة السيدة والاهتمام بشؤونها الصحية من حمية غذائية وأدوية.

العالم الجديد غريب عني. جافاني النوم في الليلة الأولى حين غيرت مرقدي. فراشي كان بجانب فراش السيدة، قريباً من نافذة تطلّ مباشرة على الامتداد الكبير والأسود للبحر وعلى زهيره.

المدى الملون بألوان الليل يدعوني لعشق جديد للحياة، ويخرق حزني. صوت لطم الأمواج يؤنس سهادي. حين يتعسّر عليّ النوم أتلهى بِعَدّ أصوات الموج إلى أن أغفو.

الاهتمام اليومي بالمرأة والقيام بأشغال بسيطة، جعلاني أتناسى لبعض الوقت حال عائلتي وحال أخي وحالتي.

وجدت في فَامَة التي تشرف على مطبخ الإقامة خير سند. امرأة مسنّة لطيفة، قليلة الكلام. علامات واضحة لتعب العمر الطويل تبدو عليها. تشتغل طباخة منذ سنين مع صاحبة الدار برفقة الخادمة الزُهرة. علّمتني كيف أعتني بالسيدة المسنة، وكيف أعدّ

لها أطباق الحمية الغذائية. قالت لي إنها امرأة فاضلة تؤنس مَن يؤنسها.

زوار البيت القليلون أشخاص تظهر عليهم علامات الغنى الفاحش. لم أسمح للدهشة أن تطيل سكنها عندي. حاولت أن أتأقلم مع وضعي الجديد بالصمت وتلبية المطالب، وعدم السؤال عن ما لا يعنيني. أشاهد وأخزن وأصمت.

* * *

للّا خدُوجْ دمثة الخلق. تجد في الكلام والحكي متعة وفرصة تتلهى بها عن آلام جسدها. قالت لي إنها في أمسّ الحاجة لمؤنسة، وأن وجودي بالقرب منها، أكيد، سيجعل الباقي من أيام عمرها أحلى بعدما تكاتف الملل والقنوط والمرض ضدها. عندما تهدأ عنها آلام المفاصل، والتي لم تكن الآلام الوحيدة التي تنغص أيامها ولياليها، تشرع في محادثتي. حين تتعب أو تتوقف لإعادة تنظيم أحداث حكاياتها وتوضيبها، لا يفتر فمها عن ذكر اللّه. آلام المفاصل والتهاب الأعصاب نتيجة مرض السكري الذي ينهش جسدها رغم العلاج، كانت تجعلها تئنّ بصوت خافت وكأنها تخجل مني، أو لا ترغب في إزعاجي. حين يتعب الألم من نخر مفاصلها ويهدأ سواء بالمهدئات أو من تلقاء نفسه، يعلو وجهها انشراح.

طباعها تغلب عليها العفوية والكرم. تذكّرني بطباع النساء البدويات في منطقتنا. حين تنطلق ضاحكة لا تتوقف إلّا بعد أن يمتلئ صدرها بالسعال. اكتشفتُ أنها تواجه آلامها المزمنة

بالضحك، به تداري الألم بشقّيه الجسدي والنفسي، وعبره تصرّ على حبّ الحياة.

لم يكن قد مرّ شهر على عملي معها حين فاجأتني أنها تتمنى لو أستقر معها في بيتها القديم بمدينة تطوان، فهي لا تحسّ بالراحة في منزل ابنتها، ولم تقم هنا إلّا اضطراراً حين تفاقمت حالتها المرضية، وبدأت تدخل أحياناً في غيبوبة السكري، الشيء الذي دفع ابنتها حنان أن تصرّ على إحضارها للإقامة معها. في حديثها أستشفّ عدم رضاها عن حياة ابنتها.

التفوّه باسم ابنتها كان يضفي على ملامحها تعبيراً قلقاً، أمّا حين تتطرق للكلام عن صهرها الحاج القْرَعْ فكان وجهها يُعجَن بطلّة حزن وبكدرٍ واضح. ليلة طرقني فضول وسألتها عن الرجل. استغرَبَت كيف أنني لا أعرف الحاج القرع زوج ابنتها حنان والذي يقضي عشر سنوات سجناً. استرسلت:

- إنه مهرب كبير للمخدرات.

صبغت ملامحها مسحة عدم ارتياح وهي تطلب من اللّه أن يبعده عن طريق ابنتها، كما يُبعد الشوك عن طريق المؤمنين. تحاملت على نفسها، توجَّهت إلى خزانة وأخرجت صورة بإطار لتعرِّفني عليه. وجه ممتلئ لرجل أصلع بشوارب خشنة، وقسمات وجه تشي بأصوله البدوية. خمَّنت أن عمره حوالي الأربعين أو أكثر بقليل. اكتشفتُ أنّ غرض للّا خَدُوجْ من عرض الصورة عليّ هو تحذيري من خطورته، ومطالبتي بأخذ الاحتياط إذا ما التقيتُ به. لم أعرف السبب. بعدها جلسَت تداري قلقها بتمرير حبات مسبحتها وتستغفر اللّه.

كانت تخاف أن يفاجئ الرجل ابنتها رغم أنه معتقل في السجن. فالعديد من معتقلي المخدرات يؤدّون مبالغ مالية كرشوة مقابل السماح لهم بالخروج من السجن والعودة في الغد، كما أنّ العديد منهم يشترون الحصول على العفو، وأنه رغم الاحتياطات التي اتخذتها ابنتها من تغيير لحراس الفيلا وكاميرات المراقبة إلّا أنّ احتمال المباغتة يظلّ وارداً، وما يخيفها أن ابنتها حنان ليست مخلصة لزوجها، وأن ردّة فعله قد تكون جد عنيفة.

سرعان ما مسحتُ من ذهني الخوف الذي تشكّل لديّ من عرض صورة الحاج القرع. أنا لا علاقة لي بما يجري، ولستُ سوى خادمةٍ أنتظر أجرتي آخر الشهر لأواجه بها مصاريفي ومصاريف عائلتي.

أحياناً كنت أرى غرباء يزورون حنان في إقامتها، من هيئتهم أو طريقة حضورهم شكَّكت في أن يكونوا عشاقاً لها، لكن حضور فؤاد بالليل أحياناً، شاب مفتول العضل ممشوق القامة، وعلامات جمال ترسم على ملامحه، كان يدعوني أن أشكّ في أنّ للمرأة علاقة به.

كنت أعبُر الحديقة حين اقترب مني احميدو أحد حراس الفيلا بعدما فتح الباب للشاب وخاطبني بخفوت:

- أخاف أن لا يكون بعد الموت جزاء وعقاب فنُغبَن من طرف أبناء الحرام هؤلاء.

تطلَّعتُ إليه مستغربة ومتصنِّعة عدم فهمي لقوله، وواصلتُ خطوي من دون أن أردّ عليه، فكرت أن الرجل يريد أن يزلّ لساني ليُخبر حنان.

عرفت أن المرأة التي أشتغل عندها تتلاعب بالمال وتغيِّر الرجال كما تغيِّر ملابسها. لعبة الحياة غير متكافئة. أنا تمنيت لو أجد رجلاً يتزوجني ولو دون حبّ ويصون أنوثتي. لم أجد إلّا من ثقبَني ورمى بي، وانسلّ دون حرج أو ندم.

لا يسعفني النوم باكراً. ما أحياه طيلة النهار يتحوَّل إلى حديث يتجاذبني في الليل، قبل أن أسلِّم نفسي لغفوة. أمام ما كنت أعرف من شظف العيش، رأيت أن الحياة كثيراً ما تكون تراكماً للحظوظ. لهب الشعور بالدونية ينخر قلبي، رأسي قد ينفجر من ألم ما ينهكه. هناك مَن يرضى بقدره في هدوء. يظهر أنني لست منهم. أحسد أولئك.

وجدت في البحر مهدئاً لما بي. يريحني الفراش الذي أتمدَّد عليه. أمامي نافذة في غرفة النوم مشرعة على البحر. للبحر أتوجّه بما يفتنني من هذيان يقظتي. أرى البحر يلوح لي بتلويحات خاصة. أحسبه يخاطبني بأصوات مَوْجِه ويهدهدني حين يصمت.

من نافذة الغرفة أرنو إليه، نهاراً عند استيقاظي، وليلاً حين يتحوَّل إلى مدى من سواد يرهبني ويريحني، فيشيع بدواخلي خوف من المبهم واستسلام لذلك الخوف، استسلام له لذة ما. تحلّ عليّ رائحة البحر سكينة مريحة باردة، من خلالها ألامس ملامس السعادة. صرت أعتبر أن اللّه لم يخلق البحر إلّا ليريح عباده ممّا يُثقل قلوبهم، وحده أعلم ما بها.

صرتُ أرهق نفسي بالعمل، ألبي طلبات للّا خدوج ثم أتوجّه إلى المطبخ لمساعدة الزُّهْرة الخادمة، ممّا يجعلني أسلم نفسي

لنوم سريع. وصفة أعطت أكلها وثبّتت مكانتي في خدمة صاحبة الفيلا.

* * *

يوم قررت أن أتوجه للعمل مع حنان صادفتُ أخي كريم، وأنا أغادر المنزل. أخبرته أنني سأعمل كمسؤولة في دار إحدى السيدات الثريات. أبدى في البداية تحفظاً من خروجي للعمل وكأنه علم أنني لن أشتغل سوى خادمة بالبيوت، قبل أن يقتنع أنه ليس لدينا خيار. كلنا كنا مضطرين للقبول في النهاية.

عند تخرجي من الكلية كان كريم يسألني متى سأصبح موظفة؟ أمام توالي أيام عطالتي لم يعُد يسألني. قال لي يوماً وكأنه قد قطع الرجاء في أن أجد عملاً:

- إن العديد ممّن حصلوا على شهادات جامعية لم يجدوا شغلاً، وأنه عمل خيراً حين لم يتعب نفسه في دراسة لن تمكّنه من إيجاد ما يدرأ به الجوع.

كريم غادر الثانوية بعد زيارته الأولى والأخيرة لحسن. امتنع عن متابعة الدراسة رغم محاولاتنا المتكررة.

في الأيام الأولى للاعتقال، وهو صغير، كان متلهفاً على زيارة حسن، لكن لصغر سنه لم يسمح له بذلك إلّا بعد ثلاث سنوات من الاعتقال. سافر رفقة أمي وخالتي. لم يرجع كما ذهب. عاد ثائراً سريع الغضب. يافع ودّع وداعته في تلك الزيارة وعاد.

أصبح متمرداً يشتعل غضباً لأسباب واهية، لم نعُد نستطيع

منعه من أن يخرج ويتأخر في العودة ليلاً، ولا أن نطلب منه أن يخفض من صوته الذي صار مرتفعاً حاداً حتى وهو يطلب كأس ماء. أمي سلَّمت أمرها للّه وكتمت مخاوفها من تصرّفاته الجديدة.

يوم ألححت عليه لزيارة حسن عبَّر بصوت غاضب أنّ حسن لا يشرفه، وأن لا أخ لديه منذ اليوم. لم أرغب في أن أسأله عن السبب، كمَن يقيح دمامل من دون تخدير أوقد آلامي الكامدة، ففضَّلت عدم مواصلة الحديث.

في صباحٍ جمع ملابسه وملاءات قديمة، وأبلغ أمي:

- لم يُسعفني البر في حياتي سألتجئ للبحر.

غادَرَنا ورحل ليقيم على شاطئ البحر. ولم يعُد يحضر إلى المنزل إلّا نادراً.

بعدما اشتغلتُ مع حنان اشتعل اشتياقي له. قررتُ أن أذهب أبحث عنه في شاطئ البحر.

في الليل، وأنا أنتظر إطلالة الصباح لأزوره استيقظ شيطان داخلي، ووسوس لي أنّ كريم قد انحرف. لم لا؟ إنه يافع ووسيم. قد يكون غرَّر به كما غرر بحسن. يتقبل خيالي عنه أي انحراف عدا أن يسلك طريق شذوذ حسن. تهدِّئني نفسي حين تذكّرني أنه لا يمكن أن يتبع طريق أخيه الذي يكرهه بسبب شذوذه، بل إنه منذ علم بحالته وهو مكتئب ومتمرد. أي دواء يبعد عني وسواسي المعيب.

ليلتها وصلَت كراهيتي لحسن بتمني موته. حين تتمنى موت

قريب عزيز تكون نفسك قد طفح ألمها منه، أو يكون الجنون بدأ يتلاعب بمشاعرك بعدما غزا عقلك.

ولجت شاطئ أمسا. بلدة قروية أقدامها تغتسل في البحر ورأسها جبال تقارب السماء. الشاطئ لم يعرف بعد الهجوم الكبير للإسمنت في شكل مجمعات سكنية وفيلات. لم يطل بحثي عن كريم. غير بعيد عن مجموعة من الأكواخ بين أشجار باسقة تطلّ على شاطئ البحر وجدتُ الكوخ الذي يقيم فيه مع صديق له، كانا يمتهنان الصيد بقارب صغير.

منذ صغره كان كريم يعشق البحر والسباحة. فرحتُ حين وجدته سعيداً، ملامحه تعكس طابع الدعة والسكون. خيراً فعل حين غادر صخب منزلنا، وركن إلى الهدوء الذي ينثره البحر في النفوس، وعلى ما يقابله من تلال وجبال.

فراشٌ بسيط. مائدة وأدوات صيد من صنارات وشباك ومجاديف، ومذياع. ارتياح لم أتعوّده هبَّ عليّ مع نسائم البحر. لمتُ نفسي لأنني لم أزُره من قبل. تطلَّعت بحبّ إلى وجهه المليح الذي لوَّحته شمس البحر، بلحية خفيفة من شعر أسود وعضلات بارزة كنت أتفحَّص شخصاً وسيماً في بداية الشباب. نغّصت علي سروري فكرة أنني لم أرِث ملامح جميلة مثل أخويّ.

البحر نداء أزرق بهيّ مترع بألوان الشمس، يدعو ناظريه إلى غسل همومهم، والاحتفاء والرضا بما وهبتهم الحياة. ففي آخر المطاف علينا أن نكون متقبِّلين لما نحن عليه، وإلّا سنفتح على أنفسنا أبواب جحيم يزيد لهبها من ضنانا، هكذا تكلم كريم.

بباب الكوخ الخشبي بسطتُ رجلي. اتّكأت على جدار وجلست أرشف شاياً ساخناً لذيذاً، وكأنّ مذاقه تحالف مع البحر المستكين وفضائه ليُذيقاني طعم سعادة خفية.

كريم لم يعُد يرغب في العودة إلى حيّنا، حي يجمع شباباً متأهّبين كلّ لحظة لإشعال معركة دامية مع مَن يحسبونه غريماً أو مَن يتخيلونه عدواً. شجارات دامية مجانية بأسلحة بيضاء وسيوف، اقتتال من أجل سيجارة أو من جراء لفظ كلمة لا تعجب متلقيها، لا نعرف أية لعنة حطَّت عليهم.

وجدتني أخبر كريم بحقيقة عملي وصنف الناس الذين أشتغل عندهم. ظلّ صامتاً. اعتقدته سيثور في وجهي ويطالبني أن أغادر العمل. صمت. صمتٌ أوحى له بأن يحدِّثني بلطف كيف أننا ملزمون أن نقبَل ما لا نرغب فيه، وكيف علينا أن نتصالح مع أنفسنا، ونتقبل حالها، وإلّا قد نخسرها. اغتسلتُ ممّا تلاعب في نفسي من نصال القلق قبل أن أزوره.

لم يكلمني عن حسن. أنا كذلك لم أرغب أن أتكلم عنه. أنا على يقين أنّ شذوذ حسن كان شذوذاً قهرياً. فُرض عليه في السجن وكان تقبّله آخر وسيلة له لكي يظلّ على قيد الحياة هناك. آخر مرة طلبتُ فيها من كريم زيارة حسن كانت منذ شهور. قاطعني ونهرني مبدياً عدم رغبته في سماع كلام عنه. ختم غضبه بقول إنّ حسن اختار طريقه، وربما هو سعيد بما اختاره، فما الذي نستطيع أن نفعله من أجله نحن؟ نعم ماذا كان بإمكاننا أن نفعل أكثر ممّا فعلنا في سبيله؟

وجدتُ صوته مفعماً بالمحبة، وكلامه يوليني اطمئناناً حين خاطبني، وهو يملأ لي كأس الشاي من جديد:

- كفاكِ ما عنيت من أجلنا. فكّري في نفسك، فكّري أن تتزوجي.

وددتُ لو أجيبه بأنّ الأمر ليس بيدي. فجأة رغبتُ في أن أضمّه إلى صدري تعويضاً عمّا بي من ضعف وشكره لاهتمامه بي. نحن النساء تعلَّمنا أن نلزم أنفسنا بأن يكون بالقرب منا رجل يخاف علينا، ويرعى ضعفنا.

وكريم يحثّني على الزواج استرجعتُ بابي المثقوب. بكارة منسوفة وأخ شاذّ وسجين سُمْعته تُبعد كلّ مَن يرغب في أن يتقدم طلباً للزواج من أخته، ومجتمع يعشق أفراده الفضيحة.

ونحن أطفالاً لم نكن نعرف شيئاً عن هذه التعاسة قبل أن تُباغتنا الحياة بمواجعها. منذ كبرت صارَت دنياي كرة ثلج تتدحرج، وتتكور على نفسها، وتجري خلفي مشمِّرة عن قوة تدحرجها لتلفني بالكثير من المتاعب، ولتنحت بمخالبها على نفسي الكثير من الآلام بعدما رمى بنا رحم أعياه وأثقله وجودنا به إلى الحياة. كانت الكرة تسبقني على الطريق وتفرشه لي بالنكبات وأنا أكبر. صراع غير متوازنٍ بين إنسان هشّ بعمر قصير وزمنٍ راسخ في القدم، وراسخ في فرش المحن ونشر الألم. زمن أفنى أيامه في حَبْك مطبّات معيقة لعابريه غير مكترث بهم وبآلامهم. وحده اللّه يعلم السبب.

بدا لي أنّ أخي كريماً كبر في السن قبل الأوان، نضج شبابي

يطلّ على مَن يعركون أنفسهم بالمسؤولية والأسئلة قبل الأوان. رأيته رجلاً يمكنني أن أعتمد عليه.

دعوت كريم أن يزورني في مكان عملي. حدَّثته من جديد عن طبيعة عملي وخبرته أن (المنزل به ما به)، حكيتُ له بالتفاصيل عن عملي وعن حنان وعن أمها التي أحبّها، طلبتُ منه أن لا يقلق عليّ، فأخته كما عرفها تحافظ على نفسها بشراسة، لا يجوز أن تفرِّط في كرامتها أو في جسدها، كمن يَمْضَغُ الزجاج نطقتُ بكلمة جسدي فأنا كاذبة، وفرطت فيه منذ زمن.

وأنا راجعة عادت نفسي تعاتبني، يكفيك من الحرمان. لا زوج، لا حب، ولا مَن يمسح دموعك ودموع أعضائك المكتوية بالحرمان، إنها تنساب ولا يراها إلّا قلبك.

يكفي ما تألم قلبي من أجلي، وهو يستمع لآهات اللذة المتسرِّبة من خيالي ويكتوي. رحمتك يارب. اللهم أدم سباتاً على رغبات جسدي من عندك حتى لا يوقظ أحاسيسي إلّا مَن يستحق أن يوقظها، فيكفي ما استيقظ مني وما سبَّبه استيقاظه.

حين وصلتُ إلى المنزل قمتُ برمي كلّ أحزاني إلى البحر، تمدَّدت على الفراش نشوانة من فرح غامض، مترصِّدة نغمات الأمواج التي تأتيني صدى لموسيقى محملة بشجن وحنين غريب لطيف.

في هذه الليلة، وقبل أن أغمض عيني تفتَّقت ذاكرتي، وشرعت أبوابها، وأنا أتهيأ للنوم كنت فرحة حتى أنّ جسدي قد رمى بكلّ ما كان ينغِّص ذهني واستدعى رغبته التي يراها من حقه،

في الانتشاء والفرح. أغواني جسدي، فقبلتُ إغواءه وخلدت للحلم.

* * *

اقترب عيد الأضحى. كان علي أن أتوجه إلى ضيعة فلاحية في ملك حنان بطريق طنجة لأؤدي أجور العمال، ولاختيار الخراف السمينة التي ستوزّع على مجموعة من المستفيدين.

في الطريق يهرب بي ذهني إلى الماضي. كان عمري قد تجاوز العاشرة، بمعنى أنني كنت أدرك جيداً معنى أن نبقى بدون خروف للعيد وسط مدينة كلّ سكانها يتبارون في شراء أضاحي كبيرة. لم يكن والدي قد استطاع توفير مبلغ شراء الأضحية، فاضطر ليسافر إلى البادية مسقط رأسه ليستعطف عائلته هناك، وليصدّ إلحاحنا أنا وكريم وحسن، وأسئلتنا عن سبب عدم شرائنا لخروف.

في الليل عاد أبي بعنزة هزيلة. احتجاج كريم على العنزة التي لا تماثل أكباش الجيران الكبيرة، أدخل أمي في دوامة من الغضب والتشنّج تعرَّض على إثرها كريم لعقاب ظلّ أثره على جلده لمدة غير قصيرة.

مع اقتراب كلّ عيد أضحى يشملني حزن غير عادي. اكتئابٌ نزل عليّ من السماء حين كنت أقوم باختيار الخرفان الكبيرة والسمينة وأميّزها، لتوزّع على كبار موظفي الإدارات والمسؤولين

الذين تحتاج حنان إلى تدخّلاتهم وخدماتهم. مجموعة لقضاة، وأخرى لرجال الأمن والدرك ولموظفي المحافظة العقارية و. . . ولا خروف سيُهدى لمن لا يملك قدرة شرائه.

عند عودتي التمستُ من حنان أن تهدي بعض الخراف لمَن لا قدرة لهم بشرائها. زجرتني بنظرة توحي بأنه عليَّ عدم التدخل فيما لا يخصني قبل أن تأمرني:

- اختاري ممّا تبقى خروفاً لعائلتك ولمن يشتغلون معنا.

رغبتُ أن أقول لها إنني لا أهدف من التماسي أن أحصل على خروف، لكنني خوفاً وجدتُ نفسي أشكرها وكأنني بذلك الشكر أقرّ أنني ما فاتحتها في الموضوع إلّا لأحصلَ على الأضحية. وجدتني ساعتها ضعيفة وغريبة حتى عن نفسي.

في الغد نادَت عليّ أم حنان طلبت مني أن أجلس بجانبها وأن أكتم لها سراً ستحدِّثني به. مدَّت يدها تحت سريرها وأخرجت مبلغ ألف درهم، قالت إنه من مالها الخاص وليس من مال حنان، وأمرتني أن أبحث عن عائلة فقيرة لا تملك قدرة شراء الأضحية وأتصدَّق عليها بالمبلغ. أصرَّت أن لا أخبر ابنتها عند عودتها من السفر. حنان كانت قد قررت أن تسافر لتقضي أيام عيد الأضحى بإسبانيا.

* * *

لم يكن غياب حنان تلك الأيام فقط، فكثيراً ما كانت تتغيّب ولا تخبرنا عن وجهة سفرها. كان يروج أنها تسافر إلى أوروبا خاصة إلى إسبانيا لرؤية ابنتها ولتهييئ عمليات تهريب الحشيش.

في تلك الأيام الحارة من شهر أغسطس كانت حنان غائبة. قبل غيابها أوصتني أن أعتني جيداً بأمها.

كنا نشاهد التلفزة حين اشتكت للّا خدوج من أنها تعبت من الأمراض التي تنهشها، وأنه يراودها اللحظة إحساس بالعجز والغثيان، قبل أن تستطرد واثقة أنّ منادياً من عند اللّه بدأ ينادي عليها، وأنها متخوِّفة من لقاء اللّه.

- «اشتقت إلى لقاء اللّه لكنني أظنّ أنه غير راغبٍ في لقائي. إنني لم أعمل في دنياي ما ألقاه به في الآخرة».

كانت تحسّ بثقل يجثو على قلبها منذ مدة طويلة وتودّ لو تتخلص منه. نطقت اسم حنان ثم توقفت، قبل أن تطلب مني أن أقدّم لها كأس شاي محلى مع بعض الحلويات. نبَّهتها بأن ذلك سيجعل معدّل السكر لديها يرتفع ممّا سيؤذي صحتها. أصرّت على طلبها.

وكأنّ تناولها للسكريات زوّدها بطاقة جديدة، افتتحت الحاجة رغبتها في الحكي:

- قبل أن تفتحي ذهنك للتذكّر وتحكي يجب عليك أن تحتاطي... فكأنك ستفتحين ذهنك ونفسك لمعركة أحاسيس قد تهزمك وقد تكون مُهلكة لك... لكنني لا أعرف كيف أحتاط.

المرأة لم تكن راضية على التحوّل المفاجئ والكبير الذي وقع في حياة عائلتها. قبل أن تنطلق في الحكي أقسمت أنّ عزّ أيامها عاشته يوم كانت تتعارك مع الحياة، وتساعد زوجها في خياطة سراويل تتعب لكي تتقنها، وذلك ليتمكّنا من تحقيق عيش كريم

وتربية ابنتهما تربية لائقة. كانت البداية حياة بسيطة، زوجها كان خياطاً بسيطاً في السوق المركزي للمدينة يخيط سراويل الرجال بثمن زهيد.

تزوّجت ابنتها حنان وهي يافعة من بقّال يملك دكاناً صغيراً. الزواج لم يطُل. ما إن وضعت طفلة حتى تمّ الطلاق. طفلة رضيعة وأم دون عمل ودون نفقة من مطلقها وجَدٌّ كلّت عيناه من التحديق في غرز إبر الخياطة، وجَدّةٌ لا تملك حلاً، دفع حنان للتوجّه إلى مدينة سبتة للعمل. مدينة يحلّ بها المغاربة للعمل مع الإسبان أو للتجارة في السلع المهربة.

- لا يأتينا منها إلّا السوء ، إنها باب الشيطان وليست باب سبتة.

هكذا وصفت للّا خدوج المدينة.

عملت حنان نادلة في مطعم، والعمل في مطعم بمدينة سبتة يفضي إلى العمل في حانة، والحانة دفعتها إلى تغيير مسار حياتها. لا أعرف إنْ كان ذلك هو السبب لكنه هكذا تم.

عمل امرأة مطلّقة شابّة ذات حُسن وقوام مثير في مدينة سبتة، كفيل بأن يسبِّب لها ولنا مشاكل عديدة لم تكن في الحسبان. صارت ابنتي تعود متأخرة في الليل تحت نظرات مريبة للجيران وسكان الحي ولمز من طرف بعضهم. تأخّرها كان يفقدني صبري ويدفعني إلى الصراخ في وجهها وتوبيخها. بعدها أقامت في سبتة وعملت نادلة بحانة يؤمها مغاربة وإسبان، يوم عيّرني بذلك ابن جيران تمنّيت لو لم أكن قد ولدت حنان... إنها الأقدار.

بعدما اغتنت حنان صار مَن كان يجرحني من الجيران بكلام جارح عنها يتقرَّب مني، أو بالأحرى يتقرَّب منها، فأنا لا أملك شيئاً حتى أعطيه. أصبح معظم الجيران يتقربون منها سواء أعطتهم من مالها أم لم تعطهم.

استطردت:

- صعبٌ يا ابنتي أن تكوني تعيشين حياة هادئة فتتحوّل حياتك إلى احتراس وخوف وحرب أعصاب. ليست الأمراض من هدَّت صحتي باكراً، بل ما عايشته مع ابنتي. فرضت الحياة علي طريقة عيش لا أرغب فيها، قبلتها مرغمة، فطغى الهمّ علي، تراكمت انفعالاتي حتى أنها لم تعُد تفارقني ممّا جعل جسدي ونفسي يرتبكان فحلَّت العلل تباعاً. وجدتُ العزاء في الابتسامات البريئة التي كانت ابنتها دلال حفيدتي توزّعها علينا في المنزل. لقد أحببتها أكثر من نفسي.

من الألم أن أعلم أنّ ابنتي تشتغل فيما هو محرم دينياً، وتمارس ما هو محظور ولا أستطيع منعها.

صمتت قليلاً قبل أن تتنهد وتشيح بوجهها عني وتقول دفعة واحدة بصوت فيه الكثير من الألم:

- مسلك الحياة يقودنا إلى ما نودّه وإلى ما لا نودّه. حنان بدأت تهرب الحشيش إلى إسبانيا عبر أحشائها، داخل رحمها، وفي إسبانيا وعند عودتها تحشر من جديد مخدر الكوكايين في أحشائها وتُدخله إلى المغرب. عضوٌ وهبه اللّه لنا لنتمتّع منه وتخلق عبره الحياة كانت تجعله عَبَّارَة للرذائل. سامحنا يا اللّه. لم

يصدمني في حياتي شيء أكثر من أنني علمتُ أنّ حنان تُدخل الكوكايين إلى بلدها.

كنت قد عرفت تأثير الكوكايين على مَن يتعاطاها، حالة ابن فطومة جارتي في الحي القديم كانت تدمي القلب. حالته وهو يبكي متسولاً جرعة تُبكي قلب الكافر، أمّا حالة أمه وأخواته وهنّ يحاولن منعه فكانت تدمي الروح.

يوم أعلنتُ لحنان أنني ساخطة عليها بسبب تجارتها تلك، أقسمَت وبكت أمامي بأنها لم ولن تتاجر فيها يوماً، لكنني ما صدَّقت ادّعائها.

لم يكن لديّ بديل أبعدها به عمّا كانت تقوم به. قبلتُ مهزومة مرغمة. وجدتُ الصمت مخرجاً، ولم أعُد أهتم سوى بحفيدتي راجية أن أتمكّن من أن أعيلها من الحلال الذي لم أعُد أجده منذ أن عجزَت عينا زوجي عن الخياطة. عجزنا عن إعالة دلال من الحلال فسلّمتها لأمها وإنني لأتقطّع شوقاً لرؤيتها بعدما هجرتها إلى إسبانيا وسلَّمتها لمدرسة داخلية. لم تكن ترغب في أن ترى ابنتها ما تعيشه الأم.. أسمع أحياناً صوتها عبر الهاتف لكنني لم أرها منذ ما يقارب سنتين.

أقرّ لك أنني منذ أقمت مع حنان، وأنا آكل وأشرب من دون شهية، وأنام بدون راحة. إنّ اللّه يعلم بحالي وهو غفور رحيم، وهو يعلم أنني ما قبلتُ العيش مع ابنتي إلّا لأنني مضطرة. فليغفر اللّه لي. تلك كانت إرادته أو عقاباً منه. لستُ أدري، أشياء كثيرة لا نعرفها ولا نقدرها. لكنها تبقى مشيئة اللّه. أنا التي كنت أحب

ابنتي صرتُ أكرهها عندما أصبحت غنية على طريقتها. الغنى الحرام والفاحش يبعدنا عن طاعة اللّه.

غصة لم تفارقني وهي أنني لم أستطع توفير مبلغ من مال حلال لأحجّ إلى بيت اللّه.

كنت مشتاقة لمعرفة خبايا حياة حنان، لأحقّق رغبتي الصغيرة في الفضول، بالدرجة نفسها بأن لا أعرف عنها شيئاً. كنت أستلذّ السمع وأنا خائفة. حنان كانت تحيط نفسها بسرية كبيرة. خفتُ أن تعلَم أنّ أمها حكت لي عن حياتها. قد تصنِّفني من الخادمات الراغبات في حشر أنوفهن فيما لا يعنيهن فتصرفني عن خدمتها. أكيد أنني لن أجد عملاً بالأجرة نفسها.

حنان لم تكن تبدو عليها دهشة الانتقال من مستوى المعيشة التي كانت تحياه إلى المستوى الجديد. أراها تتصرف وكأنها جُبلت على حياتها الجديدة منذ نعومتها. لو كنت أنا عشتُ انتقالاً مماثلاً كيف سيكون ردّ فعلي؟

الأم كانت في حاجة إلى مَن يسمع ما ترغب في تفريغه. اعترافات أم حنان تلك الليلة متَّنت روابط المودة بيني وبينها، أحسستُ أنني قريبة منها أكثر. ربما كنت أعوّض حضور أمي الغائبة عني.

كنت أزور أمي مرة في الأسبوع. أقدِّم لها ما تحتاجه من نقود. في بعض المرات أشاركها زيارة أخي في السجن. مساعدتي المالية لأمي شجَّعتها على استقدام أخت لها من البادية

لتؤنسها. خالتي رحمة عانس يفوق عمرها الخمسين. استقدامها لتعيش ببيتنا خفَّف من الوحدة عند أمي وشَغَلَها عن غيابي.

* * *

عدة شهور كانت قد مرَّت على ليلة الحكي تلك. كنت أحرص على أن أقدِّم بانتظام الدواء والغذاء للّا خدوج. لم يكن حرصي على ذلك من باب التزامي بعملي فحسب، بل كان من باب حبي لهذه السيدة كذلك.

حرصي على أن أقدم لمَا خدوج، كما أصبحتُ أناديها، الدواء وحقن الأنسولين ووجبات الحمية بانتظام، لم يمنع عنها نوبة مرض سرعان ما هدَّت قوتها. نزلة برد قوية لم تفلح معها الأدوية أقعدتها الفراش.

يومها مع الصباح صرَّحت بأن حالتها غير عادية، وأنها تحسّ بضعف عام ودوخة عارمة، وأن قلبها يخفق بسرعة كبيرة، تطوَّرت حالتها بسرعة نحو الأسوأ. قد يكون مرض السكري وارتفاع الضغط خلف تفاقم حالتها. بانت بادية التعب، منهكة. اصفرار علا وجهها. عرضتُ عليها إحضار الطبيب، فرفضت بإصرار مؤكِّدة بأن حالتها ستتحسن قريباً.

أصرَّت على أن أبقى جالسة بالقرب منها. لم ينفع ما ناولتها من أدوية بعد اتصالي بالطبيب المتتبع لمرضها، وما أعددته لها من عصائر. ضاق صدرها وصعب عليها التنفس. أنينها وهي تشتكي من الصداع وضيق صدرها يطرز قلبي بالألم.

بعد الظهر همد ألمها قليلاً، وصارت تحاول أن تهرب من

حالتها وتتناساها عبر الحديث معي. كانت تضحك وهي تحكي بصوت خافت عن نزق الطفولة في البادية، عندما دخلت في نوبة سعال حادّ خنقتها. خرجت من اختناقها شاحبة وأطرافها ترتعش.

هاتفتُ حنان فى إسبانيا لأخبرها بحالة أمها. طلبت مني أن أظلّ بالقرب منها إلى غاية أن يحضر الطبيب. وأن أقدِّم له ما يساوي أجرتي الشهرية ثمن المعاينة والفحص.

فحصها الطبيب، حقنها بحقنة، رأى أنّ حالتها تحتاج النقل إلى المصحة عاجلاً. اتصلتُ بحنان لإخبارها. أصرَّت على حمل أمها إلى المصحة وبأن أظلّ قربها ليلاً ونهاراً إلى أن تحضر.

في الطريق إلى المصحة وبسيارة الإسعاف دخلت ما خدوج في شبه غيبوبة. لم تعُد تسمعني وأنا أكلِّمها. بالمصحة أودَعَها الطبيب غرفة العناية المركزة. تمّ ربطها وهي بين الغيبوبة واليقظة بمجموعة من أجهزة الإنعاش. جهاز لضخّ الأكسجين وآلة لفحص دقات القلب وجهاز السيروم... حضر ممرّض شاب ليسهر قرب المريضة حرصاً على سلامتها.

كلّ هذه الأجهزة وهذا الجهد المبذول من الطاقم الصحي لتعود المرأة إلى وعيها، إلى ما كانت تتمتع به قبل وقت قليل. غمرني إحساس فظيع بما يسكننا من هشاشة. نحن لا نقدِّر نعمة العافية إلّا حين تلاعبنا وتهددنا بالانسحاب من أجسادنا لتتركنا عرضة للآلام والانتكاسات. المرض وذبول العافية كافيان ليقهرا الإنسان، فكيف إذا ما أصابته نائبات أخرى.

جلستُ على كرسيّ أمام فراش المريضة. قبالتي على كرسي

آخر جلس الممرض وهو يحرص على مراقبة الأجهزة الطبية من حين إلى آخر. حين أرفع عيني أجده يحدِّق فيّ، قبل أن ينزل نظراته بسرعة. أحسستُ بالقرف من وجودي وجهاً لوجه مع رجل طيلة الليل. بدأ القلق يحرِّك أعضائي، شعور برغبة في إفراغ مثانتي، غرغرة في البطن، تثاؤب. أنشغل عنه وعن نظراته بمحاولة قراءة مجلّة معتمدة على الضوء الخافت الذي يعمّ الغرفة. ذهني لم يساعدني لكي أنغمس في القراءة.

بدأ لون تقاسيم وجه للّا خدوج يذوي، وما يطبع ملامحها من دعة وهدوء صار يتحوّل إلى استسلام وانطفاء. أغلقَت عينيها، دخلَت في غفوة.

عقارب الساعة المعلَّقة أمامنا ترمي بالزمن خلفها من دون صوت. مللتُ من الوجوم الجاثم على الغرفة. الممرض يقرأ كتاباً. إنّه متعوّد على مثل هذه المواقف وعلى مواقف ومشاهد أكثر قبحاً وأشدّ ألماً. هُدوؤه يقرّ بذلك. حسدته على سكينته وتمنّيت لو كنتُ درست التمريض أو الطب حتى أكون شجاعة في مواجهة المشاهد المؤلمة، حين يكون جسد الإنسان متلاشياً أو في طريق التلاشي.

أطفأ الممرض مصباح النور الباهت. صار نور الغرفة كابياً. ملامح الشاب تظهر غريبة عبر ضوء القمر المتسرِّب من زجاج النافذة حتى أنها تثير لديّ عدم ارتياح.

حين رفع الرجل نظراته نحوي، ضبطني أدقِّق النظر في عينيه. ابتسمتُ فردّ بابتسامة. رغبة تمتحنني.

انطلقت حشرجات متواصلة من المريضة. بدا الممرِّض قلقاً وقام يتفحّص الأجهزة المربوطة بها المريضة باهتمام.

اللون الذي يصبغ وجه السيدة الآن، يشبه ذلك اللون الأصفر المنطفئ والمثير للغثيان الذي طلع على وجه أبي لحظة خَطَفَه الموت.

اشمئزاز وخوف. إنني أمام امرأة تتهيّأ للموت. كنت قد وددتُ لو لم تطلب مني حنان مرافقة أمها حتى أعفي نفسي من هذا المشهد. لكنها عنيدة وتثق بي، ولو أعلنتُ لها رغبتي، وهي لم تصل بعد من السفر، حتماً ستطردني من عملي. جلستُ أتسرى من خوفي وضجري بغلق عيني أو التحديق في أجهزة غرفة العناية الطبية وفي وجه الممرض الشاب.

تنفس المرأة رتيب بطيء وحشرجة تكسر بطأه. أنبوب محاليل يسقي أوردتها الجليكوز. صعود ونزول منحنيات جهاز رسم القلب. الجهاز ينطلق منه أنين رتيب منفِّر يخترق أذني بقوة ويشتّت ما أبحث عنه من اطمئنان. قال لي الممرض إنها ترقد الآن في نوم اصطناعي.

اضطرب إيقاع نبضات المرأة. حضر الطبيب ليُخبرني أنّ الطب لا يستطيع أن يتدخل أكثر من هذا، قبل أن يضيف أنّ عمر المرأة وأمراضها المزمنة سبب حالتها، وأنها تحت رحمة اللّه.

فجأة فتحت المرأة عينيها ببطء، تطلّعت نحونا وابتسمت في ذبول. دعوت اللّه أن يخفِّف عنها ثقل الداء. لم تطل ابتسامتها. ضاع ما يغلف وجهها من بريق وظهر بريق واضح على محيا الشاب، وكأنه نداء خفيّ يدعوني أن أركز نظري فيه.

نداء أحالني إلى زمن غير بعيد حين هاتفتني حنان التي كانت في سفر عمل بإسبانيا، بضرورة أن أساعد الحاجة فامة والزهرة في تهييئ عشاء فاخر وما يصحبه من مشروبات روحية لأحد الضيوف ولمرافقيه.

ونحن نقدِّم ما هيأناه من وجبات كانت نظرات الضيف الشاب ذي الوجه الصبوح تثقبني. حين كنا نجمع الموائد لحق بي وطلب مني مجالسته. لا بد أنّ الرجل قد لعب برأسه الشراب ليتجرأ ويطلب مني ذلك وهو يعرف أنني لست سوى خادمة لدى حنان. تلعثمتُ وأنا أتحجَّج أنه لا يُسمح لي بذلك. تمادى الشاب وشرع يتغزل في أنوثتي ويصف جمالي بالهادئ البارد، وأنا أردّ بابتسامة صغيرة أعبِّر بها عن شكري لإطرائه. لا أنكر أنني استلطفته في البداية.

ردَّ عليّ بأن مدّ يده وجذبني نحوه. انتفضتُ في وجهه بسرعة ووجهي ينفث علامات غضب مخيف. عدلَ من وقفته وغارت الابتسامة عن وجهه. ما نتج عن لقائي الأول بالقاضي ولقاءاتي الخجولة غير المكتملة مع محمد جعلني أرفض أن يقترب مني أيّ رجل بطريقة فظّة.

وأنا أنسحب، تبعني صوت الشاب يُخبرني أنه سيحلّ في غرفتي بعد الانتهاء من سمره من أجل الاحتفال بسطوع ضوء النهار بين فخذيّ. انبلاج الليل سيمكنه من رؤية ما أخفيه بوضوح، وأنه عليّ أن أهيئ نفسي. كلامه استفزني. وجدتُ نفسي أحترم قسماً لا أتذكّر أنني أقسمتُ به بأن لن أسمح لأيٍّ كان بالاقتراب من أسرار جسدي. قد تكون نفسي أقسمَت به دون علم مني.

زوار حنان كانوا من التجار الكبار للمخدرات بغلاف رجال أعمال، عادة لا يتملكهم الخجل أو الانطواء، إلّا أنني لم أتخيّل أن يبدي الرجل رغبته في أن يجرِّب معي ليلة حب بمثل هذه الوقاحة.

أمثاله تعودوا على مخاطبة النساء بهذا الشكل. هكذا يتعاملون مع المومسات والراغبات في المال.

بغتة وجدتُ نفسي قوية. لم أتهيَّب من الرجل ولا ممّا قد يلحقني من انتفاضتي ورفضي. قبل أن أخطو منسحبة وقفتُ في وجهه وأنا أطأ تحت قدمي ما عنَّ لي إعجاباً أولياً به. بثقة قليلاً ما تكون عليها امرأة قذفت في وجهه ما بان لي لائقاً في حقه:

- أنا متيقنة أنك لستَ رجلاً... وحدهم أشباه الرجال أمثالك من يخاطبون المرأة بهذه الطريقة.

رميته بنظرات تتفجر احتقاراً وانسحبتُ أمام ذهولٍ أبكَمَه. وأنا أكرر لنفسي كم هو دنيء هذا الشخص.

لستُ أدري لمَ تذكرتُ ما تعرضت له من طرف ذلك الشاب المتغطرس، فالممرض القابع أمامي بدا لي شخصاً وديعاً.

كان عليّ أن أساعد الممرض حين همَّ بتغيير المصل بعدما قارَبَ سائله من أن ينفد. حين أسترجع ما حدث لا أجد تبريراً لما قمتُ به. وجدتني أقف بالقرب منه وأمدّ يدي نحو زجاجة المصل لأساعده. وجوم غريب مريب عجيب يسود، تكسره حشرجة المرأة ودقات قلبي.

منادٍ كان يناديني، لم أسمعه لكنه كان ينادي. للنداء طُرُق

أخرى غير نداء الصوت. قد يكون نداء للّهروب ممّا أستشعره من فحيح شبح الموت الذي كان يحوم في غرفة الإنعاش. لا مواجهة للخوف من الموت إلّا بحب الحياة.

اقتربنا من بعضنا من دون كلام. اعتصرني جسم الرجل حين حاولتُ أن أستدير. استسلمتُ لما يناديني، لا تفسير لدي. ليست كلّ المواقف تفسَّر. نحن في حاجة أحياناً إلى حماقات. نداء غريب، وكأنه ليس مني، يدفعني لأقترب منه أكثر. فجأة لم أكن أنا من يُقدِم على هذا الفعل، بل امرأة أخرى أَذِنَت لجنون خفيّ أن يحلّ بها. كأنني أتفرَّج عليها وأسرق متعة عبر ما تقوم به. جنون تلك المرأة، التي كنت بصدد عيش مغامرتها، قادني إلى حالة نفسية غريبة، لا أعرف إن كنت سأنزع ملابسي وأرتمي في حضن الشاب، أم سأرتمي في حضنه بملابسي؟

النداء جدول ماء جارٍ حرَّك مياه نفسي التي كانت راكدة في مستنقع هامد. تحت المستنقع فارَ الماء، ماء الحياة. رقرقته تدعوني. أنفاس الرجل تُلهبني. نفسي التي كانت تشمئزّ من مثل هذا الاقتراب شرعت تستدرجني إلى ما كنت تناسيته وتجاهلته، رغم أنني سبق وأقسمت.

استسلمتُ للإغراء. لا طاقة لي للمقاومة. لمْ أُجَرَّ عكس رغبة قدمي؛ قدماي انسابت خطواتها خلف الشاب وهو يحاول أن يُوصلني إلى مضجع فارغ قرب فراش المحتضرة.

أختلس متعة الجسد، أسكر، الجسد القوي للشاب يستعد للفتك بجسدي. أتمتع في حضرة الشبق. صراع الموت والحياة.

حياة تنطفئ وحياة، ليست كالحياة، ليست كحياتي، تشتعل لذّة بيننا.

حشرجات المريضة تعلو. لم أستدِر لأتبيّن حالتها، ولم يستدر الرجل. كان ينهشني وأنا أتلظى بلذة النهش من أسفل إلى أعلى ومن أعلى إلى أسفل. لا حاجة لي بلباس.

تلاقت الحشرجات وتشابهت، منها ما ترسم طريق الموت ومنها ما ترسم لذّة الحياة. بين الحشرجتين كنت مستسلمة تائهة، متناسية الموت والحياة. نعم كانت اللذة التي تنسي الموت والحياة وتجعل متذوّقها بعيداً عنهما، غير مهتمّ بهما.

شفتاي تطبقان على شفتيه. الرجل يلبسني وأنا ألبسه. شغل الشيطان فكري ساعتها. حلوٌ أن نموت ونحن في حضرة اللذة.

كيف أموت على لذة؟ أتلذذ، أغيب... أغيب... ولا أستفيق، وأنتهي من لذتي حتى يأخذني الموت.

صوت جهاز الإنعاش لا يقطع لهفتي ولهفة الرجل. كان يفرك لحمي إلى أن صرخ ونهض من فوقي وقد بدا مصعوقاً ممّا حدث. رغم الضوء الخافت المتسرِّب كان وجهه شاحباً وكأنّ الموت هجر المرأة وتسلَّط عليه:

- قحبة... إنك بكرٌ ولم تخبريني. تريدين أن تلفّقي لي تهمة فضّ بكارتك. لستِ سوى قحبة... قحبة.

حاولَ صفعي. رميتُ نظراتي لأرى دم نُثر من وسطي، دم بعث في كياني استفاقة من خدري ممّا كنت فيه.

- لم أكن أعرف أنّ دم المرأة يُخيف حتى الرجال.

دمدمت بتلك الكلمات من بين ألمي الصافع وأنا أتلمس بيدي الدم الذي بين فخذي.

* * *

شَغَلني ارتفاع صوت غرغرة تتردَّد في حلق المرأة الممدَّدة. هدأ الممرض وهو يربط حزام سرواله وعيناه مخطوفتان تجاه المرأة المحتضرة. أنفاسها ترتفع وتخبو في حلقها، قبل أن تعود ترتفع من جديد. فجأة رأيت عينيها قد جحظتا. حين أسترجع جحوظ العينين يختلط عليّ الأمر إن كان الفعل قد وقع أم أنني تخيلته.

كانت العينان باهتتين قلب وجه فاقدٍ للونه. رأيت المرأة تجهد نفسها لفتح فمها كأنها ترغب في أن تخاطبنا. أشعلت بصعوبة ابتسامة على ثغرها بشفتين معوجتين، قبل أن ينطفئ كلّ ما فيها وتشرع ملامحها تذوي في هدوء. لم تتمّ ما كانت تتمتم به وترغب في قوله لنا. لا أحد من الأموات يتمِّم ما كان يودّ عمله أو قوله. ظلَّ فمها مفتوحاً وهي تودّع روحها وتسلمها إلى بارئها.

حين لملمتُ ما خلّفته لذتي المبتورة من جراحٍ رميت بعيني نحو المرأة، وجدتها هامدة ولون منفّر للموت يكسو وجهها. ترحَّمت عليها، وترجيت من اللّه أن يغفر زلتي.

اقترب مني الممرض، والهلع يطفر من عينيه. أراد أن يصفعني مرة ثانية، انتفضتُ في وجهه وعضضته على كفه، صفعته. صرخ من الألم، تراجع وانشغل بمعاينة جثمان السيدة.

صباح اليوم التالي، مصدومة ممّا حلّ بي في الليلة المشؤومة، هرعتُ إلى طبيبة نساء أستفسرها عن دمي.

حكيت لها عن حالتي وتاريخها. أكّدت لي بعدما فحصتني، أنّ جرح البكارة الذي تعرَّضت له أول مرة من طرف القاضي كان جرحاً بسيطاً، وأنه كان قد التأم. يعني أنني لم أكن فقدتُ بكارتي كلياً في علاقتي الجسدية الأولى، قبل أن تضيف إنّ غشاء بكارتي كان قد عاد إلى طبيعته بما أنني لم أمارس الجنس منذ ذلك التاريخ، وأن الفضّ الحقيقي للبكارة كان ليلة أمس.

لا أعرف من أين يبدأ ندمي وأين ينتهي؟ في أثناء مراسيم الجنازة بعد حضور حنان من إسبانيا لم أتوقف عن البكاء.

في الغد توجَّهت أبحث عن الممرض عازمة على تعنيفه وإجباره على الزواج بي. واجهته أنني كنت بكراً وأنه هو مَن افتضّ بكارتي. انزعج من حضوري وأقسم أنه سيخبر حنان وكلّ الناس أنني أتهمه باطلاً، فلست سوى واحدة من العاهرات اللواتي يرغبن في أن يتخلصن من بكارتهن، ويبحثن عن مَن يلصقن به التهمة، ويحمِّلنه المسؤولية. رماني بكلام ساقط قصدَ منه إهانتي، ووصفني بالعاهرة وبأنني على أبواب العهر.

أمام تخوفي من أن يفضحني ضعفت. تراجعتُ عن اندفاعي وقلت له:

- كُن رجلاً واسترني.

وعدني أنّ أحسن سترٍ لي أنه لن يحدِّث أحداً بما وقع.

* * *

تمكَّن الوهن مني. حنان رأت سبب سقمي فرطاً من الألم على فقدان أمها. نادت عليّ لتعلن لي بأنها لن تتخلى عني، وبأنني سأظلّ خادمة لديها بالامتيازات نفسها. أذنَت لي برخصة للغياب بعدما زوّدتني بمبلغ مالي.

للّا خدوج كانت تقول إنّ الشجرة الحرام تُثمر سريعاً. انقطعت عادتي الشهرية، في البداية أرجعتُ الأمر إلى اضطرابي النفسي، مرَّ الشهر الثاني من دونها، تأخّرها جعلني أنسى ثقبي، لم يعُد لي من متمنًّى سوى أن تعود.

زرتُ طبيبة أمراض النساء، قمتُ بالتحاليل اللازمة، أخبرتني أنني حامل. الأرض تميد تحت عيني. عليّ القيام بعملية إجهاض فلست راغبة في الاحتفاظ بحمل سفاح.

رحلة أعصاب بحثاً عن طبيب يوافق بإجراء عملية إجهاضي سراً. ها أنا أحمل خسارتين مرة واحدة. ثقب وإجهاض بسبب اشتعالٍ شيطاني.

المال يفتح الأبواب الصدئة. أفقتُ على مناداة الممرضة لتخبرني أن عملية الاجهاض تمَّت بنجاح، وأنه عليّ أن أذهب لحالي.

ضربٌ على نواقيس من حديد داخل أذني. كلّ الكلمات لا قدرة لها على وصف حالتي. وأنا أطأ عتبة المصحة والجو لطيف وأشعة الشمس تنهال بهدوء، كان خيط من ريح بارد مسموم يخترقني من أسفل إلى أعلى ومن أعلى الى أسفل. جسدي مجوّف بسبب ثقبي. رمل يذريه الريح داخلي وبردٌ يصعد منه بنصال

تخرم. إنني مثقوبة وثقبي الجديد صار أوسع بكثير ممّا كان. كنت أداري ما بي من غثيان ودوخة، وأحاول أن أصل بسرعة إلى المنزل قبل أن أتهاوى في الشارع.

عادت لي نوبة مرضي. وجدت نفسي أرغب في أن أصرخ. بمنزلنا أغلقتُ عليّ باب غرفة. بكيت وبكيت، وصيَّحت بكلّ قوتي.

* * *

انتفضَت نفسي عليّ فجأة. كأنها تساعدني لأخرج من أزماتي ولأنسى رهابي من الجنون. بدأت تطالبني بالاهتمام بنفسي وبمظهري. اهتمامات صغيرة تُنسينا شجوننا الكبيرة. صرفتُ مبلغاً من المال في اختيار ملابس أنيقة باهظة الثمن. صرتُ أجمِّل نفسي بتسريحات شَعر حديثة تمكِّنني من الظهور بمظهر جديد وجذاب. خلال مراهقتي كنت أكره لباسي المدرسي الذي تقادم، ولم تعُد محاولات كيِّه ليظهر بمظهر لائق تُجدي. رغم محاولة والدي إقناعي أنّ قوة شخصية الإنسان ليست في مظهره، وأنه لولا الفقراء لضاع العلم، إلّا أنني لا أنسى حقدي على الفتيات اللواتي كنّ يحضرن في فصل الشتاء بمعاطف صوفية أنيقة، تدثِّر وتدفئ الجسد والروح.

بالغتُ في الاهتمام بمظهري. لم يكن هدفي إغراء رجل ما، لكنني وددتُ إغراء نفسي حتى تحبّني، ولا ترمي بي إلى اكتئاب وحده اللّه يعرف مآله.

ربما تأثّرت بما كانت تعيشه حنان. كان البذخ في الاستهلاك

سِمَتها. تقتني كلّ ملابسها بما فيها الداخلية من دور عالمية شهيرة، الفساتين والبدل متنوعة من مختلف الدول التي تزورها.

خلال الأيام التي اجتاحتني فيها رغبة تغيير مظهري، فاتحتُ حنان في أن تهديني ما لم تعُد ترغب في ارتدائه. رفضَت بحجّة أنها لا ترغب أن ترى ما لبسته هي تلبسه امرأة أخرى. وكأنها علمَت ما طال نفسي من تغيير عرضَت عليّ أن أقوم بأعمال تدرّ عليّ تعويضاً مهماً. خاطبتني:

- مستقبَلاً سأمكّنك من تحقيق دخل أفضل. عليك أن تبيّني شطارتك.

مهمَّتي الجديدة كانت القيام بالمشاركة في فتح الطريق أثناء عمليات تهريب المخدرات. خلال الأيام الأخرى أظلّ أسهر على شؤون المنزل كخادمة.

ألزمتني حنان بأن أحصل على رخصة سياقة السيارات. اشترت لي سيارة، وزوّدتني بهاتف نقال قالت لي إنه يتَّصل عبر شبكة للاتصالات لا يستطيع رجال الأمن مراقبتها. رقمان فقط كان عليَّ الاتصال بهما رقم هاتفها ورقم قائد القافلة.

هكذا بدأتُ مهمّتي فيما يسميه تجار المخدرات بالتغطية وفتح الطريق. أسيرُ بسيارتي أمام موكب المخدرات لكيلومترات لأستطلع كمائن رجال الدرك والجمارك والشرطة التي لم تكن في حسبان حنان. كان عليَّ أن أطلع قائد القافلة إن كان هناك ما يعوق الموكب، سواء عند التوجّه بالمخدرات إلى أمكنة الخزن، أو حين التوجّه بها الى الشاطئ حيث تُحمَّل على ظهر قوارب

بمحركات نفاثة، أو عند تسليم شحنة ما بمدن أخرى داخل المغرب.

أحياناً لا ندري من أين نكتسب الشجاعة. لم أتخيَّل نفسي يوماً أعمل مع عصابة لتهريب المخدرات. بقدر ما كان ينتابني خوف وندم، ينتابني اعتزاز مُبهَم من كوني ولجت عالماً غريباً عني كان يرهبني مجرَّد التفكير فيه. قدَّمت لي حنان التوجيهات وأرشدتني إلى طرق العمل. لامبالاتي بما أنا مُقدِمَة عليه كانت السلاح الناجع لأتخطى خوفي. مهربو المخدرات ينجحون في عملهم بالمغامرة، وعدم الاهتمام بالمخاطر التي تترتَّب عنها، وبالسعي وراء الغنى السريع.

اكتشفتُ أنني قادرة على أن أصبح ثرية. شجاعة ليست بأكثر من شجاعة مواجهة أحداث الحياة العادية، لامبالاة ، وتحدٍّ، فغنى وجاه.

المرحومة أم حنان كانت ترى أنّ ذاك العالم ليس بالصعوبة التي نظنّ: إنه عمل الجبناء ومنعدمي الضمير، وطريقة سهلة لجمع الأموال لمن لا يخاف الله. قليلٌ من الشجاعة، أقلّ من شجاعة تقبُّل الحياة في ظروف صعبة، كافٍ لأن تدخل أبواب الحرام وتخرج محمّلاً بالمال، قبل أن تضيف محمّلاً بالمال والآثام.

أشارت لي يوماً إلى لوحة رخامية منمَّقة تزيِّن مدخل قصر ابنتها وتحمل عبارة «هذا من فضل ربي». وعلَّقت: «ويدَّعون أن هذا من فضل ربي. ملاعين».

انخراطي في عملي الجديد بتفانٍ، والمال الذي صرتُ

أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/

بمحركات نفاثة، أو عند تسليم شحنة ما بمدن أخرى داخل المغرب.

أحياناً لا ندري من أين نكتسب الشجاعة. لم أتخيَّل نفسي يوماً أعمل مع عصابة لتهريب المخدرات. بقدر ما كان ينتابني خوف وندم، ينتابني اعتزاز مُبهَم من كوني ولجت عالماً غريباً عني كان يرهبني مجرَّد التفكير فيه. قدَّمت لي حنان التوجيهات وأرشدتني إلى طرق العمل. لامبالاتي بما أنا مُقدِمَة عليه كانت السلاح الناجع لأتخطى خوفي. مهربو المخدرات ينجحون في عملهم بالمغامرة، وعدم الاهتمام بالمخاطر التي تترتَّب عنها، وبالسعي وراء الغنى السريع.

اكتشفتُ أنني قادرة على أن أصبح ثرية. شجاعة ليست بأكثر من شجاعة مواجهة أحداث الحياة العادية، لامبالاة ، وتحدٍّ، فغنى وجاه.

المرحومة أم حنان كانت ترى أنّ ذاك العالم ليس بالصعوبة التي نظنّ: إنه عمل الجبناء ومنعدمي الضمير، وطريقة سهلة لجمع الأموال لمن لا يخاف اللّه. قليلٌ من الشجاعة، أقلّ من شجاعة تقبُّل الحياة في ظروف صعبة، كافٍ لأن تدخل أبواب الحرام وتخرج محمّلاً بالمال، قبل أن تضيف محمّلاً بالمال والآثام.

أشارت لي يوماً إلى لوحة رخامية منمَّقة تزيِّن مدخل قصر ابنتها وتحمل عبارة «هذا من فضل ربي». وعلَّقت: «ويدَّعون أن هذا من فضل ربي. ملاعين».

انخراطي في عملي الجديد بتفانٍ، والمال الذي صرتُ

أكسبه، ساهما في تجاهلي لما كان يعتمرني من قلق. تناسيتُ نوبتي المرضية.

كسبتُ ثقة حنان. أصبحتُ أقوم بمهمات جديدة. مكاني تعزَّز يوم كانت حنان تعيش على أعصابها، بعدما أقدمَت السلطات المكلَّفة بحراسة البحر على إقامة مخدع للمراقبة من البناء السريع على شاطئ أزلا.

ما كان مزعجاً لنا، هو أنّ المركز تمّ إنشاؤه على بُعد أمتار قليلة من منزلٍ قرويّ اتخذته حنان مستودعاً مؤقتاً لأطنان من المخدرات، في انتظار تهريبها عبر البحر. كان الموقع قد اختير بعناية بين الغابة والبحر، وتمّ ملؤه برزم الحشيش، في انتظار وصول مركب سياحي من هولندا إلى عرض البحر ليتمّ تسليمه السلعة داخل المياه الإقليمية الإسبانية.

كنا نعرف أنّ القبطان الجديد لحرس الحدود الذي عُيِّن مؤخراً، عوض آخر تمّ سجنه عقاباً له على تعامله مع مهربي المخدرات، حازمٌ ونزيه وأنّ أيّ محاولة لرشوته سيكون مآل مَن يقوم بها السجن.

علمتُ من حنان وهي تطفئ سيجارة لتُشعل أخرى، أنّ مشتري هذه الحمولة هو ريكاردو الماتادور (القاتل) مهرِّب دولي من أصول فنزويلية لا يتورع عن قتل أقرب المقربين إليه.

كان صارماً في تهديده حين اتصل بحنان، وقال إنه لا يمكن لرجاله أن ينتظروا داخل البحر أكثر من ثلاثة أيام، وأنه عليها تدبّر الأمر بإرسال شحنة أخرى من الحشيش الجيد حالة تعذّر تسليمه

تلك الموجودة في المخزن. كانت حنان في ورطة، خاصة أنها لا تستطيع إيجاد الكمية نفسها من الحشيش الجيد وتهيئتها في الزمن المحدّد، وأنها قد تخسر زبوناً مهماً، كما أنّ ريكاردو قد لا يتوانى في إرسال أحد عملائه لتصفيتها بعدما توصّلت منه بمبلغ مهم كعربون عن السلعة.

قبل سنين قليلة اخترقت رصاصات قاتلة جسد مهرب في باب منزله بتطوان، لم يُلقَ القبض على القتلة. راجت إشاعة أنهم أفراد عصابة إيطالية زوّدها الرجل بحشيش غير جيّد. ليس ببعيد كذلك هاجمت عصابة بيتاً بالحي الجديد، قتلت شاباً، ومزّقت جسد أخته بالسكاكين، كانت عملية انتقام بين مروّجين محليين للمخدرات. أحياناً يعذّبني الخوف من الوسط الذي أشتغل فيه. أهدئ نفسي بأنني لست سوى خادمة في بيت امرأة تمتهن تهريب الحشيش.

حين ينخرط الإنسان في أعمال مشبوهة، يسهُل عليه العثور على حلول لن تفضي المغامرة بها إلى أكثر من الاعتقال والسجن.

قرب المخزن وغير بعيدٍ عن مركز الحراسة اكترَت ثلاث فتيات بيتاً من أجل الاستجمام بالبحر. في اليوم الثاني قامت الفتيات بإغراء رجلَي حراسة المركز، ودعوتهما للعشاء والسهر معهن داخل المنزل. خلال عشاء السهرة قدّمن للعسكريين وجبات لذيذة وشراباً بسائل مخدر. نام الجنديان إلى غاية الصبح، لم يتفقّدا ليلتها شاطئ البحر، ولم يسمعا خطوات رجالنا وهم يحملون الأكياس لتفريغها غير بعيد في قوارب نفاثة من طراز فانتوم، لتحمل إلى عرض البحر وتسلّم إلى رجال ريكاردو.

العملية التي خططْتُ لها جعلتني أزداد حظوة لدى حنان، وأكسبتني مبلغاً مالياً أضفته إلى ما ادّخرت من قبل. اشتريتُ شقّة تطلّ على شاطئ البحر بمدينة مرتيل.

* * *

مكالمة هاتفية من رجل أمن يعمل مخبراً لحساب حنان أخبرها بأنه تمّ القبض على شارلو أحد رجالها، وأنه قد يقرّ بمكان تخزين الشحنة الأخيرة من الحشيش.

طلبت مني حنان أن أتوجّه على عجل إلى جبل أنجرة لأشرف على عملية إفراغ الإصطبل ممّا يحتويه من أطنان الحشيش. أمرت حارسين من المزرعة بمرافقتي. لم يكن بإمكانها أن تستعمل الهاتف. كان علينا أن نتفادى استعمال السيارة أو المشي عبر الطريق العادي. انطلقنا بين أحراش الغابة التي تطلّ على البحر، العتمة تتكاثف لدرجة الظلمة. ريح باردة وسماء دون قمر. عليَّ أن أبيِّن عن قدرتي تحمل المسؤولية. إن نجحتُ في المهمة سأحظى بحظوة أكثر عند حنان، وإنْ فشلتُ قد تتخلى عن خدماتي.

تحديت خوفي وما يلاعب عقلي من أفكار سوداء وانطلقتُ بسرعة تجهدني. كنت أجري وأنا أقاوم خوفاً يغلِّف أحاسيسي والرجلان قربي. لم أبالِ بالإجهاد وأنا أمشي ساعة من الزمن في قلب الغابة وبين الأحراش قبل أن أخرج إلى الطريق وأوقف سيارة أجرة. ادَّعيت لسائقها أنّ أمي جد مريضة وأنه عليّ أن أصل إلى القرية قبل وفاتها وأن مرافقيّ من عائلتي. الوصول ليلاً إلى القرية

بالسيارة حيث المخزن مثير للشبهات، كما يمكن أن نكون مراقَبين ونُعتقل ويتمّ الوصول إلى المخزون. أطنان من المخدرات ستقود حنان إلى السجن وتقودني أنا إلى السجن أو إلى البطالة. نزلنا على بُعد مسافة كيلومتر من المدشر وقصدنا الحظيرة راجلَين.

المخزَن كان داخل إسطبل للبقر. الحظيرة مسجلة باسم عائلة من القرية، لكن حنان هي المالكة الحقيقية. شرعَ الحارسان وأبناء الفلاح في تهريب أكياس الحشيش من داخل الحظيرة وإدخال رزمٍ من التبن مكانها. خُبئَتْ رزم الحشيش في الغابة وببيتٍ من بيوت القرية. بعد ساعتين من العمل كنا قد أخلينا المكان. حضر رجال الأمن ساعة بعد ذلك ولم يعثروا على شيء.

- أحسنتِ التصرف. بقُبلة على خدي وبهذه الكلمات هنَّأتني حنان بعدما استقبلتها خارج مركز الأمن.

عدم ضبط حشيش بالمخزن المُبلَّغ عنه، وانعدام حجة إثبات جريمة تهريب الحشيش كانا كافيين لإطلاق سراح حنان. لم تدفع حنان رشوة هذه المرة.

* * *

صرتُ مساعدة ثقة للمرأة، أصبحتُ أشاركها بعض أسرارها. حنان إلى جانب قيامها بعمليات التهريب كانت وسيطة لتجار المخدرات سواء في عقد الصفقات مع مشترين أجانب خارج المغرب، أو مع جامعي الحشيش من الفلاحين بمناطق جبال الريف، أو بين مهربي المخدرات ورجال السلطة، رجال أمن كانوا أم قضاة، كما أنها كانت وسيطة أمينة لرجل أعمال يعمل

على تبييض أموال المروجين الكبار للمخدرات مقابل عمولة مهمة.

بدأت حنان تكلّفني بالقيام ببعض العمليات التي ترى أنه ليس من الضروري أن تقوم بها بنفسها أو لانشغالها بما تراه أهم. صباح يوم مشمسٍ كلّفتني بدفع رشوة. عرفتُ أنها لقاضيين من أجل التدخّل لصالح مهرّب للحشيش معتقَل. توجّهت إلى فندق سفير حاملة كيساً من الورق المزوَّق البراق يَحمل كلمة هدية، بداخله عدّة رزم من الأوراق النقدية، كان المبلغ بالملايين.

في صالون صغير منزوٍ بالفندق كان رجلان في انتظاري. اقتربتُ من درجٍ مُدّت عليها سجادة حمراء تؤدي إلى حيث كان الجالسان يجرعان كؤوس خمر، وهما منشغلان بالنظر عبر الشباك إلى نساء يسبَحن في مسبح الفندق.

كأنّ شعاع برق صعقني. تمالكتُ نفسي والتجأتُ إلى أريكة على اليمين من الدرج المفضية إلى الصالون. وضعتُ الكيس قربي، وأحنيتُ رأسي متفادية أن أرفع عيني ما أمكن، حتى لا تلتقي نظراتي بنظرات الرجلين.

الرأس الأصلع والجبهة العريضة، لا أظنّ أنني سأمرّ عليهما دون أن يتركا أثرهما في نفسي. الوجه الخمري، والعينان البارزتان والخدان الممتلئان، وأصابع الكفين العريضتين... كيف لي أن أنساها؟!

السنوات التي مرّت لم تغيِّر من ملامح الرجل، ومن قسوة ملامحه كثيراً. كان القاضي مغتصبي، وكنت ملزَمَة بأن أقدِّم له الهدية.

ناديتُ على نادلٍ، طلبت منه أن يسلِّم الكيس إلى الرجلين. تردَّد وهو يسألني إن كانت هدية للقاضيين، أخرجتُ ورقة نقدية من مائتي درهم وسلَّمتها له. وقف النادل أمامهما وخاطبهما وهو يقدِّم الكيس. رفع الرجل الثاني عينيه نحوي، تسلَّم الكيس، فتحه، تطلَّع إلى محتواه قبل أن يشير بيده نحوي ببرودة كأنه يُخبرني أنّ المهمة انتهت.

مَن ثقبني لم يتغيَّر. كأن ريحاً باردة هاجمتني من ثقب ما بين فخذي وامتدت إلى أمعائي كتيار كهربائي. يخطّ لنا آخرون أقداراً سيئة ولا سبيل لنا إلى ردّ شطَطِها. مَن ثقبني أهديته بنفسي عشرات الملايين من السنتيمات هذا الصباح.

غرغرة ببطني وغثيان. أسرعتُ بالخروج. ارتميتُ داخل سيارتي بمرآب الفندق. فتحتُ النافذة لأستنشق الهواء. انطلقتُ هاربة.

حنق وكراهية للحياة ولنفسي. تغازلني نوبتي العصبية. كأنني سأبدأ في نزع ملابسي والارتماء عارية صارخة إلى الشارع. ابتعدتُ بسرعة.

تلك الليلة عذبني نومي المتقطع وفكرة الانتقام. كيف سأنتقم؟

عشرات الخطط أسردها في ذهني. ذهني مشوَّش لم يستطِع أن يتبنى ولو خطّة واحدة، لم لا يتبنى سوى ما يعذِّبني ويجعلني أقتنع أنني أقف على أبواب الجنون.

* * *

لم أحكِ لحنان عن القاضي. إحساسٌ بالغبن يلهبني، ورغبة في الانتقام تجعلني أقتنع بأن أقبل بجميع أصناف العمل مع حنان.

من يومها أصبحتُ على استعداد لأن أقوم بأيّ شيء من أجل تعزيز مكانتي عندها. لن أتباكى على حالي وما اعتبرته شرفي المهدور. الوقت مناسب لأكسب المزيد من المال والحظوة، ومن تحقيق الذات. صرتُ متلهفة على حبّ الحياة. رغبة في الانتقام ممّا عشته قد تكون خلف ذلك. آنَ لي أن أفكّر كيف أنتقم.

لم تمرّ مدة طويلة حتى كلّفت بإحضار ما تحويه خزنة حديدية من منزل مهرِّب معتقل، وتسليمها إلى مسؤول قضائي كرشوة. المسؤول القضائي يرفض تسلّم الشيكات. كان المهرِّب قد اعتُقل يوم الخميس. يوم الجمعة طرقتُ باب الفيلا، فتحَت لي زوجته، المرأة التي تبدو عليها البساطة، قادتني إلى مكان الخزنة الحديدية وأطلعتني على محتواها، أكّدت أنهما لا يملكان سوى هذا المبلغ كنقود سائلة. كان المبلغ تسعين مليون سنتيم. قيمة شقة فخمة في شارع ممتاز بتطوان.

حملتُ المبلغ لأسلِّمه لرسول رجل القضاء. في الطريق أخذتُ منه لنفسي عشرة ملايين.

كان مبلغ الرشوة ثمن إطلاق سراح المعتقل يوم الجمعة. تمّ إطلاق سراحه على أساس أن يمثُل يوم الاثنين للمحاكمة بعد أداء مبلغ مالي ضمانة قانونية. يوم الاثنين كان الرجل قد هرب إلى إسبانيا.

أطلقتُ على ذلك الشهر من السنة شهر الغزوات. في الأيام الأخيرة منه نادَت عليّ حنان للقيام بغزوة أخرى ادَّعت أنها جدّ مهمة. لم أفكِّر بالعواقب ما دامت ستُكسبني مالاً.

كان عليّ أن أشرف على تسليم نصف مليون دولار لشراء براءة «الحرباء»، بارون مخدرات يعمل بين المغرب وأوروبا، أحد أصدقاء حنان. كانت حنان تكنّ له مكانة خاصة وتعتبره أباها الروحي وعرّابها. كان يتعامل مع عصابات دولية وقادراً على أن يوصِلَ الحشيش إلى بلدان أوروبا مهما كانت قوة الحراسة ومهما كانت ظروف المراقبة. رجال عصابته قادرون على تهريب المخدرات بحراً وبراً وجواً عبر طائرات صغيرة. ثقته العمياء في النفس كانت خلف اعتقاله. رغم إصدار مذكِّرة بحث دولية عنه كان يدخل من أوروبا إلى المغرب ويغادره متى شاء.

حنان تدخّلت لدى مسؤولين في العدل ليحصل الرجل على العفو. اشترط المتدخل الحصول على مبلغ الرشوة بالدولار. لحنان عمولتها الكبيرة من الحرباء ومن الآخرين.

بعد منتصف الليل، وفي الطريق إلى مدينة الرباط عرج المهدي سائق السيارة نحو منعطف يؤدي إلى غابة المعمورة. قرب السائق كان يجلس العربي، أحد رجال حنان لابساً جلباباً أبيض يجعله يظهر كأحد فقهاء المساجد متوجِّهاً ليلقي درس وعظ. كان الرجل حذراً طيلة الطريق ومن حين إلى آخر يتحسَّس مسدسه. كيسا النقود كانا مخفيين بعناية تحت الكراسي الخلفية حيث أجلس.

خلفنا سيارة رباعية الدفع يقودها محامٍ يصاحبه اثنان. كانوا رجال الحاج العراب، رافقونا ليتأكّدوا من حسن سَير العملية.

قلب غابة المعمورة وفي المكان المتّفق عليه، كانت تنتظرنا سيارة من النوع الذي تُستعمل لنقل المواد الفلاحية. تأكّدت من رقم السيارة. نزل شخصان يوحي لباسهما أنهما فلاحان. خاطبَنا أحدهما باللغة الإسبانية بحسب الاتفاق. سلَّم لنا نصف ورقة مالية. قارنَها العربي مع النصف الآخر الذي في حوزته. سلَّمنا لهما الكيسين الممتلئين برزم الأوراق النقدية. مبلغ هائل يمكّن من شراء عدّة شقق فخمة.

حسرة لعقت حنجرتي. توفي أبي، وهو يحلم بشراء منزل بسيط يمكّننا من الهروب من الرطوبة التي تنخر جدران منزلنا الذي كنّا نكتريه بالمدينة القديمة، ومن سموم العلاقات الاجتماعية المتوترة والمخلّفة لعنف غير مبرّر بحيِّنا.

وجدتني أفكر أنني على الطريق الصائب، وأنه لا يمكنني التراجع عنه. إيماننا واقتناعنا بمسار ما يجعلنا نغيِّب إمكانية تغييره. طريقي هذا وحده يقودني إلى تحقيق ما حُرمت منه، ويغسلني من أوهام القيم والحلم بعدالة ما على هذه الأرض.

* * *

كنت أرافق حنان لتفقّد أشغال بناء عمارة في ملكها في شارع الحمامة. طُرِق باب العمارة. رئيس مجلس المدينة أرسل مستشاراً بالمجلس لزيارة حنان. ظلَّ الرجل ينتظر محتمياً من المطر تحت السقيفة وقتاً غير قصير. حنان تعمَّدت أن تتركه ينتظر طويلاً.

بتصرّفها كانت ترغب في أن تحتقره وتستفزّه وعبره تحتقر رئيس مجلس المدينة. هكذا صرّحت لي.

بعد ما فَتَحْتُ له الباب، قال لي إن رئيس المجلس البلدي أرسله ليتسلم مبلغاً مالياً اتّفق عليه مع حنان. كان المبلغ رشوة له بعدما رخَّص لحنان بزيادة طابق خامس دون رخصة قانونية ودون مصعد، وسلم لها شهادة تثبت أنّ العمارة قابلة للسكن.

أخبرته حنان أنّ المبلغ المتفق عليه سيتمّ تسليمه بمكتبه غداً. صباح الغد كنت أدقّ الباب على الرئيس الذي كان ينتظرني. تذكَّرت كيف كنت أظلّ أمام باب مكتب الرئيس السابق أستجدي رؤيته لطلب عمل ولو في الإنعاش. سلَّمت للرجل ثلاثين ألف درهم فاحتجّ بأنها لا تساوي سوى نصف المبلغ المتفق عليه، وأصرَّ على لقاء حنان.

كما أوصتني حنان، ذكَّرته باستلامه منها مبلغ مائة ألف درهم منذ أشهر قليلة مقابل رخصة عمارة أخرى بحيّ الولاية. بلع غضبه مكتفياً بنظرة انكسار وهو يلقم المبلغ جيب سترته. كانت مناسبة لي ليعمّني انتشاء وأتشفى من موقفه الذليل. خاطبته بنبرة مَن يردّ متسوّلاً ملحاحاً:

- القناعة رزق يا أستاذ.

لم يأبَه لكلامي. استوقفني:

- على العموم.. الحملة الانتخابية اقتربَت. قولي لحنان إنني أنتظر مساعدتها كما وعدتني.

سبق لي وتعرّفت على الرجل عندما كنت أخوض

الاعتصامات مع المعطلين. بمقرّ حزبه كان قد ألقى علينا خطبة حول الحقوق والظلم . يومها ادَّعى أنه في حال نجاحه في الانتخابات البلدية أو التشريعية لن يتكلّف بشؤون المدينة من أعمال صيانة الطرق والكهرباء والنظافة، هذا عمل الموظفين وليس المنتخبين، عمله سيقتصر على التنمية الاقتصادية الشاملة. حثَّنا على مواصلة النضال والصمود قبل أن ينصرف، لكن يظهر أنه كانت لديه مخطّطات أخرى خلف ما يدّعيه نضالاً. أصبح بعد ذلك مستشاراً برلمانياً مالكاً لعدّة عقارات، لقد عمل على تنمية ذاته. شاعَ عنه أنه يوم جنازة صهره، وقف أمام طابور من عمال النظافة بالبلدية كأمير، ليقدِّموا له العزاء ويقبِّلوا يده.

أكَّد عليّ وأنا أفتح الباب لأنصرف:

- لا تنسَي. ذكِّري حنان أننا في حزبنا سنعتمد عليها في الانتخابات المقبلة.

حلَّت حملة الانتخابات في المدينة. كان لحنان توجّه سياسيّ مختلف عن توجّه رئيس مجلس المدينة. أحزاب عديدة تتغنى بشعارات كبيرة. أهل المدينة يصوّتون ثم يشرعون في عَدّ ما حصل عليه الناجحون في الانتخابات البلدية أو البرلمانية من منافع، مَن كان فقيراً منهم يغتني ومَن كان غنياً يزداد غنى.

أصبحَت حنان من بين الأعضاء الفاعلين مع بعض بارونات المخدرات بالمدينة في حزب سياسي. طلبَت مني أن نتوجّه لحضور اجتماع للحزب بقاعة سينما أبيندا. لم تكن تحتاج إلى سماع رأيي، بحكم أنني خادمة لديها سأكون تابعة لها سياسياً.

في شارع محمد الخامس وأنا متوجّهة لألتحق بحنان، شدّني صدى أصوات. زمن مُرٌّ حُلْوٌ مرّ مني هارباً كما يمرّ دائماً. تبيّنت أنها أصوات شعارات لخريجي الجامعات المعطلين.. اقتربَت الأصوات المحتجّة منددة بسياسة الحكومة وبالانتخابات. عيناي كادت تدمعان حين اختلجت مشاعري لسماعها وهي مندفعة بقوة من حناجر شابات وشبان. عاصفة داخلية أمطرتني برعشة. أسرعتُ الخطى. هي الشعارات نفسها التي كنت أردّدها مع باقي المعطلين. قصدت ركناً منزوياً قرب باب متجر ووقفت أتطلّع إلى الوجوه الغاضبة. وخزٌ من إحساس بالذنب كسر شوقي ومتعتي للأصوات التي ذكرتني بمرحلة من عمري. سنوات قد مرت. أنا أعيش في بحبوحة كما يُقال، ومَن كانوا مثلي ما زالوا يعانون من البطالة وشظف العيش، كان محمد بينهم. فتيلة الاهتمام به كانت منطفئة تماماً هذه المرة.

أحنى رأسه بسرعة حين رمقني. قد لا يعتبرني الآن سوى فتاة اختارت الانحراف والاتجار في المخدرات من أجل المال.

بباب سينما أبيندا علقت لافتة كبيرة تحمل صورة رئيس الحزب الذي كان وزيراً بالحكومة. جوقة من الطرب الجبلي تعزف. تعلو هتافات داخل القاعة المكتظة. معظم الحاضرين من القرويين، نساء لم يتوقفن عن ترديد الزغاريد.

التقيتُ بحنان في المدخل. اقتربَت مني لتقول لي إننا ملزمون بدعم هذا الحزب، إنه يدافع عن مزارعي الكيف ومروجي المخدرات، وعليّ أن أقوم بحملة دعائية لفائدة مرشحيه، وأقنع جميع أفراد عائلتي الصغيرة والكبيرة والجيران وتجار السوق...

بالتصويت لهم، وأنها ستزوّدني بمبالغ مالية أقدِّمها إلى مَن سيصوّت لهؤلاء. أفضَت لي بعد ذلك بأنها ساهمت بعشرين مليون سنتيم لرئيس الحزب من مالها، كما أنها جمعت عشرات الملايين من مهربين آخرين دعماً له.

دخلتُ مع حنان، تمت تهيئة مقاعد خاصة لنا في الصفوف الأمامية. على المنصّة رئيس الحزب بجانبه ممثل الحزب بالمدينة وإلى يساره أحد المهربين الكبار للحشيش بالمدينة.

بطريقة سمجة ابتغى رئيس الحزب التقرب من الحضور، سأل بصوت مرتفع:

- كيف حالكم؟

ردّ معظم الحاضرين مهللين بالحمد والشكر.

تظاهر الرجل بالغضب والضيق، أوقف الهتاف والتصفيق بيده، رفع أصبعه الوسطى في وجه كلّ الحاضرين:

- هذا ما تستحقونه أيها الجبناء.

أصابني المشهد بالغثيان. عمَّ القاعة صمتٌ مطبق، وفترت الابتسامات على الوجوه التي ارتسم عليها التساؤل والحيرة. بعدما وثق الرجل من انتصاره بهجومه المباغت والفظّ على الحضور، عادَ يكيل لسامعيه اللوم، ويعاتبهم على جبنهم لكونهم جعلوا للخوف مبيتاً في قلوبهم وهم المعروفون ببأسهم وشجاعتهم ونضالهم ضدّ الاستعمار، فكيف يمكِّنون رجال السلطة من أمثال القواد والباشاوات بالتسلّط عليهم؟ وكيف يخافون منهم؟

وقف الحاضرون يصفقون. تعالت الزغاريد والتعليقات المادحة.

اضطربت أنفاسي والخطيب يواصل مداخلته بلغة يغلب عليها التهريج مدعياً أنه ابن القرية المغربية، وحزبه حزب القرية وأنه حامي القرى والقرويين... صفق الحاضرون من جديد حين طالبهم بأن يثابروا على تعليم أبنائهم في التعليم التقليدي.

كان التوتّر ينهشني، حين انبرى شاب واقفاً وسط قاعة السينما، وقد بدا عليه غيظ خانق، مقاطعاً الرجل:

- كيف تطلب منا ذلك بينما أبناؤك يدرسون في جامعتَي بوسطن وهارفرد؟

المداخلة التي أثلجت صدري، أنهتها هراوات رجال الأمن التي نزلت على الشاب، قبل أن يُرمى به خارج القاعة.

غمرني امتعاض حتى أنني خفتُ أن تنتابني نوبة ذعري من جديد. تسلَّمني ارتجاف وتعرّق. علي أن أهدئ نفسي عبر تنفس منتظم ومتواصل.

على حين غرة عمَّني شعور غريب بالهدوء والرضا. وجدتني أفكر إذا كان أمثال هؤلاء يتمتعون بما هم فيه على حساب المستضعفين، فلِمَ لا أرضى أنا بعملي مع مهرّبي المخدرات؟ ولتذهب المبادئ إلى الجحيم.

* * *

كسبت مزيداً من المال وشقتين وسيارة.

هاتفتُ أخي كريم، طلبتُ منه أن يزورني بمقرّ عملي. ألححتُ عليه. انتهزتُ الفرصة حين اشتكت لي حنان من يونس بْرِيطَا. بْريطَا كان سائقاً ماهراً للزوارق النفاثة التي يهرّب بها الحشيش إلى إسبانيا. فجر ليلة سابقة وهو يقود زورقاً محمّلاً بثلاثة أطنان من الحشيش اتصل بحنان ليخبرها أنّ مروحية للحرس الإسباني تطارده في المياه الإسبانية، وأنه رمى برزم الحشيش إلى الماء، وعاد بسرعة إلى المياه المغربية. حنان صارحتني بأنها تشكّ في الحكاية، فحين اتّصل بها ليطلب منها أن تسمع صوت الهلكوبتير المطاردة، لم تسمع سوى صوت ارتطام الزورق بالماء. ختمت قولها إنها تشكّ في أن بريطا ومساعده كذبا عليها وأنها ستتأكد من ذلك قريباً، وفي حالة ثبت ذلك سيكون عقابهما شديداً.

وجدتُها مناسبة لألتمس منها إمكانية تشغيل كريم. بالغتُ في الإشادة بأخلاقه، وبانضباطه وبخبرته بالبحر. فكرتُ أنه لن يقبل العمل معها لكنني أستطيع إقناعه. حنان تنظر إليّ صامتة وأنا أقدّم لها سيرته.

أحضرتُ ألبوم صوري. تفحّصت معها صوراً كنت قد التقطتها له في كوخه وعلى زورقه الصغير. في الصور يظهر شاباً وسيماً يشبه أولئك الشبان الذين كنت أشاهد صورهم وأعجب بهم في المجلات الإسبانية، شباب في منتهى الجمال والأناقة وهم يقومون بالدعاية لألبسة وعطور.

كنت أحبّ تلك المجلات ومراراً أعود لأتصفّحها. ثمنها لم يكن يتعدّى درهماً واحداً. كنت أشتريها مرة في الأسبوع، ومن ثم أبادلها مع صديقتي ليلى بمجلة أخرى مرتفعة الثمن، كثيراً ما تنشر صوراً للعائلة الملكية الإسبانية. ليلى التي كانت تشترط عليَّ أن أحافظ على المجلة وأعيدها لها بعد تصفّحها. باحت لي يوماً بسرها الكبير خلف إدمانها على شرائها رغم ثمنها المرتفع. اعترفت لي بأنها مغرمة بشكلٍ مثير للجنون بالأمير الإسباني، ولي العهد آنذاك.

في صباح يوم ربيعي غادرت تطوان ورحلت عبر مدينة سبتة إلى إسبانيا. بعثت برسالة إلى عائلتها تحكي فيها عن التجائها إلى إسبانيا بحثاً عن العمل، وبعثَت لي برسالة تحكي من خلالها رحلتها إلى إسبانيا لتبلغ حبها للأمير الإسباني. بعد ذلك لم أسمع عنها خبراً، ولم تبعث لي أية رسالة.

نثرت صور كريم أمام عيني حنان. مدَّت يدها إلى الصور وقرَّبتها من وجهها. أبدت إعجابها بالشاطئ، وبجمال الطبيعة قبل أن تُبدي اهتماماً بأخي، وتصفَه باسمة بأنه جذاب. أشعلت سيجارة وأخذت نفساً عميقاً.

قبل انصرافها طلبت مني استدعاءه غداً لأنها وجدت له عملاً يليق به. تملَّكني رضى مشوْب بغير قليل من القلق.

في الغد دعتنا حنان أنا وكريم لتناول العشاء. بحكم فضولي كنت أتلصّص على نظراتها وتصرّفاتها تجاه كريم. كانت هادئة وهي تسترق النظر مرة تلو مرة نحوه وتسأله عن أحواله وظروف عيشه.

ظلّ كريم خجولاً يردّ على أسئلة حنان باختصار، وأحياناً يكاد يتلعثم. لم يخرج حديثه عن عشقه للبحر رغم أهواله وعن الصيد ومتاعبه ورزقه المحدود. لم تبيّن حنان اهتماماً كبيراً به كما كنت أتوقّع. في المساء أخبرتني أنها ترغب في أن تُخضعه لتجربة لترى إن كان قادراً على العمل معها. بعد مرور شهر علمت أنّ كريم قام بتسليم أول شحنة من المخدرات في إسبانيا بنجاح.

في وقت وجيز أصبح كريم يعمل مهرِّباً للحشيش. يقطع البحر بزورق نفّاث، يصل إلى شواطئ إسبانيا، يستقبله أصحاب السلعة، يسلِّمهم الشحنة، ويعود ليحمل شحنة أخرى إن كانت الظروف مواتية. لا تستغرق العملية سوى ساعات قليلة. حنان كانت سخية معه، كلّ عملية يحقق من ورائها عشرات الآلاف من الدراهم.

لم تمر سنة حتى تغيَّرت حياة كريم. ظهرت عليه بوادر يُسر مادي. حملني ليلة صيف على متن سيارة رباعية الدفع للعشاء في مطعم فاخر بشاطئ مرينا سمير. العشاء باذخ. على شاطئ الميناء تصطفّ مراكب ويخوت جدّ فاخرة. صار يعدّ لي أنواعها وبلدانها، توقّف ليشير إلى مراكب كبيرة فخمة قبل أن يقول لي إنها لأباطرة مخدرات لا يقومون سوى بإعطاء التعليمات والتنسيق مع عصابات من خارج البلد ورجال السلطة المرتشين، بينما الفلاحون الفقراء يكدحون في الجبال، وأمثاله من البحارة يغامرون بحياتهم كل ليلة يعزمون فيها على تسليم شحنة من المخدرات عبر البحر.

اكتشفتُ من كلامه أنه عازم مهما كلفه الأمر على أن يصبح

تاجر مخدرات يعمل لحسابه. شدَّني الخوف عليه. ندمتُ لأنني كنت السبب فيما وصل له.. الحياة الجديدة أغرته. فكرتُ أن أنصحه بالابتعاد عن هذه الطريق، عدلت عن نصيحتي وأنا متيقنة أنها ستكون دون جدوى.

* * *

لم يكمل حسن مدّة حبسه. بعد خمس عشرة سنة من السجن حصل على العفو. أيام انتظار خروجه لم أعرف توجيه أحاسيسي. بماذا عليّ أن أحسّ؟ من الصعب أن تحاول توجيه إحساساتك وأن لا تدَعَها على سجيتها. أأفرح أم أحزن؟ أأبكي أم أزغرد فرحاً؟

انتظرت ذلك اليوم باضطراب، ليته كان يمرّ دون أن أعيشه. كيف؟ لست أدري. وحده الموت يمكنه أن يغيبني عن حضوره.

كريم رفض الحضور لاستقباله، أرسل سائقاً بسيارة مرسيدس فارهة ليقلّنا إلى سجن مدينة طنجة. ركنتُ في المقاعد الخلفية قرب خالتي. ادَّعيتُ أن رأسي يؤلمني حتى أهرب من الضجيج المحيط بي. أمي تلحّ على السائق أن يسرع. لم تتوقف عن الكلام. السائق كان يسايرها ويمدح ما فعلته من أجل تربية أبنائها. حكَت عن حسن منذ ولادته إلى أن تمّ سجنه ظلماً. كانت تحكي وتبكي. هل نحن نبالغ في وصف حزننا أم أنّ ضخامته تفرض المبالغة لحظة الحكي عنه؟ قد نكون نلغو أكثر من المعتاد. أكيد أننا لا نفعل الشيء نفسه عند الحديث عن فرحنا.

بدأ الألم من روحي. روحي هي التي كانت تؤلمني. ألم

الروح دفع انتشار آلام أخرى في جسدي. تجشؤ وغازات تتراقص وغرغرة في البطن. إحساس برغبة الدخول إلى المرحاض. صدري انقبض. أنزلت زجاج نافذة السيارة، سرحت بين التلال التي تجتازها السيارة محاولة أن أجعل ذهني يخترقها، ويبعدني عمّا أنا فيه.

وصلنا إلى طنجة. أنساني هدير السيارات العابرة لشوارعها حالي. تمنيتُ لو كنت أسكن هذه المدينة الفاتنة بعمرانها وشواطئها. مدينة تجيد إخفاء أحزان قاطنيها. ليكن مشروعي المقبل أن أقتني بها شقة تطلّ على البحر.

ركنّا السيارة، ترجّلنا تجاه باب السجن. كان الحراس ينتظروننا. بمدخل البناية نادوا على حسن. مزّقته أمي بين ذراعيها وتحت دموعها. كذلك فعلت خالتي. تقدمتُ نحوه وعانقته بحرارة قبل أن تخنقني دموعي رغم محاولتي أن أبدي تجلّدي وصبري. أشار في تهكم خفيف وهو يصعد السيارة، إلى الرفاهية التي أصبحنا نعيشها. أوضحت له أمي أنه منذ اليوم لن ينقصه شيء للعيش الرغيد، وأننا لن نتخلى عنه.

ما كان يثيرني هو أنّ أمي لم تُشِر ولو يوماً، بكلمة إلى ما أصبحت عليه حالة حسن. حالة يتبدّى منها أنّ صفات الذكورة اعتلت مظهرياً عنده. لقد كانت حكيمة في تجاهل ما آل إليه حال ابنها.

كنت قد زرته شهرين من قبل، إلّا أنني انفعلت يومها بشكل مبالغ، إنسان غريب جديد سيصبح بيننا. وضع حسن حقيبة تحمل ذكريات سجنه داخل السيارة وانطلقنا.

في الطريق غمرتني كآبة على حين غرة. أحالني ذهني على الرغبة في قتله وقتل نفسي. لو كنت أسوق السيارة لدفعت بها إلى عمق الخنادق الممتدة على الطريق. قاومتُ وساوسي، فهي ليست سوى تداعيات نوبتي المرضية.

تطلعتُ إلى وجهه. تجاعيد رقيقة ترسم خيوطاً على محياه، أثر مرهم على وجهه، شعره مسدل خلف رأسه بعناية. خاتمان في أصبع واحدة. نظرات عينيه المضطربة تُعْلمني بأنني أمام إنسان غيَّره السجن والغياب كثيراً. كنت أتفحص ملامحه لأكتشف أخي من جديد. تمنيت لو كان ما عرفته عنه فترة اعتقاله وتيقّنت منه مجرد هلوسات يقظة، وأضغاث أحلام.

رفض حسن أن نتَّجه إلى المنزل الجديد الذي اشتراه كريم لأمي بشارع الجيش الملكي. أصرَّ على أن نقصد حينا القديم. دخل المنزل ولم ينسَ ما تسرب إلى شخصيته من تصرفات أنثوية.

سخرتُ في نفسي: ذلك ما كان ينقصنا في حي مثل حينا. باغتتني فكرة أنّ على من يريد الزواج بي أن يتقبل حالة عذريتي وحال أخ مخنث.

منذ خروج أخي لم تعُد أمي تحثّني على الزواج، وتتهمني كما دأبت أنني بنت ناقصة الأنوثة واللباقة، ما دمتُ لا أعرف كيف أستخدمهما لاصطياد زوج، خاصة وأنني أصبحت ميسورة. اقتنعْتُ أنني أنثى لم تعرف ولا تعرف كيف تتصرف بأنوثتها، لقد قاربتُ أن أصبح عانساً. لم يتقدم أحد يطلب يدي. حتى لا أجلد نفسي أكثر رميتُ بالسبب على حسن، وأقنعتُ نفسي أن حالته

ستنفر كلّ مَن يفكر في أن يتقدَّم لخطبتي. مفاجأتي الكبيرة أنني وجدته بعد خروجه من السجن، وهو يشرف على الأربعين من عمره، لا يخفي شذوذه، وأنه مدمن على الهروبين.

تسلطت عليّ مخاوفي حتى شعرتُ أنها كبلت رغبتي في الرجل أياً كان وكيفما كان، وربما رغبتي في الحياة أيضاً. وجدت في منزل حنان ملجأ. ليتني لا أعود إلى منزلنا، ليتني أهجر الدنيا وأهاجر إلى حيث لن أعود.

يوم التقيت صديقتي لطيفة التي كانت معجبة بجمال أخي أيام الصبا حاولتُ أن أتنصل من سؤالها عنه بطريقة فجّة، قطعت سؤالها وأخبرتها أنني مسرعة إلى مشوار.

رغم إلحاح أمي رفض حسن الانتقال إلى الشقة الجديدة، أصرَّ رغم توسلاتها على الإقامة بالبيت القديم. عندما حضر كريم وأخبره أنه عازم على شراء المنزل من صاحبه ومن ثم هدمه وبناء إقامة صغيرة، أشهر حسن خنجراً في وجهه. شرارة غير معهودة انطلقت من عينيه توحي بأنه قد يُقدم على فعل إجرامي بوحشية. هدده بأنه سيكون قاتله. كم يتغيّر الإنسان. لم أستوعب كيف يهدِّد حسن اللطيف ذو الحركات النسوية أخاه بتلك الطريقة! لاحظت دهشة وخوفاً في عيني كريم وهو ينسلّ خارج الدار.

لم نكن في حاجة إلى صراع في بيتنا. ألححتُ على كريم أن يترك حسن لحاله. عاد أياماً بعد ذلك ليلحّ عليّ بأن أقنِعَه بالهجرة إلى إسبانيا على أن يتكفّل بجميع مصاريفه هناك. رفض حسن الاقتراح كما رفض اقتراح أمي بأن يسيِّر محلاً للتجارة في ملك كريم. اعتبر نفسه زاهداً في الحياة يكفيه ما يحيا منها. بعدما

رفض كريم قرَّرتُ صاغرة أن أخصِّص له مبلغاً من المال يمكِّنه من تغطية مصاريف إدمانه على الهروبين الذي كان قد حمله معه من السجن.

* * *

ماتت أمي. بعدما أسرعت إلى المنزل إثر مكالمة هاتفية من خالتي، وجدتُ روح أمي قد رحلت عنها. حكت لي خالتي قلب زوبعة من النواح أنها بعدما هيأت وجبة الفطور، نادت عليها، لكنها لم تُجِبْها، وحين ذهبت إلى غرفتها لإيقاظها وجَدَتها جثة باردة. أخي حسن بكى بحرقة. كان يتمنى لو أنّ أمي تدعو له قبل رحيلها.

نادينا على كريم، لم يكن هاتفه مشغلاً. منذ اشتغل مع حنان وخوفاً من مراقبة هاتفه صار هو مَن يبادر بالاتصال بنا. اتّصلت بهاتف حنان، من المؤكد أنّ كريم برفقتها، منذ عدّة شهور لم يعودا يفترقان، أجابني موزع آلي باللغة الإسبانية بكون الرقم المطلوب خارج التغطية.

أعددنا جنازة أمي لدفنها. بكيتُ وترحّمت عليها. كانت جنازة كباقي جنازات موتى حينا. بكاء خلال النهار وإعداد عشاء لقرّاء القرآن وللمعزين في الليل. حين أعتزم الكف عن البكاء تذكّرني خالتي. خلال الموت نكتشف هشاشتنا الكبرى. أنستني أحزاني مخاوفي.

في الغد وجدتُ خالتي وكأنها امرأة أخرى، شمَّرت عن ذراعيها ووقفت تعدّ الفطور للمعزين الذين قضوا الليلة ببيتنا.

كانت تتحدث بطريقة عادية وكأنها ليست تلك المرأة التي ظلّت تغسل وجهها البارحة بالدموع. الصبر والإيمان جعلاها تواجه فراق أختها بانتصار. أغبط القابضين مثلها على الصبر والإيمان في مثل هذه المواقف. أنا كأنني أقبض على النار. قد يكون افتقاري للإيمان البسيط الذي يشرح الصدر رغم كلّ الفواجع خلف حالتي. إيمان العجائز الفطري كنزٌ. كيف يتقبل مَن لا إيمان لهم بالآخرة موت أحبائهم؟

كان صبر خالتي يذوي لحظة اقترابها من حَسن لتهدِّئ من روعه، وتلتمس منه أن يكفّ عن الحزن والبكاء، تذكِّره بالإيمان باللّه وتدعو له بأن يَمُن اللّه عليه بقدرة التخلص من بلواه.

أياماً بعد ذلك حضر كريم. لقد عرف الخبر من طرف صديق له بإسبانيا. كان جدّ حزين. عانق حسن وبكى على كتفه. قابل حسن ذلك ببكاء قوي. اقترح أن نقيم مأتم عزاء كبير لأمي. رفضت.

في اليوم الموالي عرض كريم علينا من جديد الرحيل إلى الشقة الفاخرة التي اشتراها لأمي في شارع الجيش الملكي. رفض حسن مرة أخرى بإصرار ولكن بأدب. قبل الظهر حضرت حنان محمَّلة بالعديد من الهدايا التي تُهدى في مثل هذه المناسبات. قالت لي إنه بإمكاني أخذ إجازة مطوّلة قدر ما رغبت. بعد انقضاء اليوم الرابع والأخير من أيام العزاء وجدتُ نفسي قد ضقتُ بين حيطان تتلي عليّ طوال الليل والنهار ذكريات أمي. في صباح الغد قررتُ الالتحاق بعملي.

* * *

الشهور تمرّ، لم أعُد أرى كريم إلّا قليلاً. حضور حنان إلى الفيلا صار نادراً. أصبحتُ مسؤولة عن تسيير الفيلا. لم أعد أشارك في عمليات تهريب الحشيش. كان ذلك بإيعاز من أخي كريم الذي أصبح هو المتحكِّم في مثل هذه العمليات عوض حنان. كانت إشاعات تروج بين خادمات وحراس الفيلا أنّ حنان تجمعها علاقة عاطفية قوية بكريم، وبأنهما يعيشان كزوجين بين مدينة سبتة ومربيا بإسبانيا، ومن هناك يديران عمليات التهريب.

يوم هاتفني كريم ليطمئنّ عليّ وعلى حسن، نبَّهته لِما يشاع عنهما، وذكَّرته بالقْرَعْ زوج حنان وبخطورته رغم وجوده في السجن. طمأنني بصوت رجل واثق من نفسه أنّ ما يجمعه بحنان علاقة عمل وتجارة.

وأنا أتهيأ ليلة باردة للنوم، نادت عليّ خالتي لتُطلعني على ما آل إليه حال حسن بسبب إدمانه المفرط. جافاني النوم ليلتها. في الطريق إلى المنزل صباحاً كانت نفسي تعاتبني. أنا سلبية أكثر من حسن. لم أحاول يوماً أن أمنعه من إدمانه وأعالجه. حين كنت أتطرق معه إلى الحديث عن إمكانية علاجه في مصحّة خاصة كان يثور ويغضب. كان علينا أن نأخذه بالقوة. يوم أصررنا أنا وكريم على نقله إلى مصحّة خارج مدينة تطوان أقسَمَ أنه سينتحر.

وصلت في وقت مبكر إلى منزلنا. استقبلتني خالتي، التي غالباً ما ترسم ابتسامة على وجهها، منفعلة هذه المرة. من قبل كنت أحسدها على تحمّلها سهام الحياة الحارقة بتفاؤل وصبر، وتقييمها لما أراه مزعجاً وموتراً أنه طبيعي يمكن أن يحصل لكلّ مَن يسلك طريق الحياة...

بالفعل هذه المرة كانت جدّ قلقة على حسن حتى أنها بكت وهي تعرض عليّ حالته.

حسن لم يتغير إلّا للأسوأ. وجدته هيكلاً من جلد على عظم كساه اصفرار الموت. ضاعت حُمرة خدوده، غارت غضون وجهه، ظلّت ضحكته المتصنّعة تخرج من ثغر ككهف خرافي. فقدَ أسنانه ولم يعوّضها بطاقم اصطناعي رغم أنني قدَّمت له مبالغ مالية لهذا الغرض.

منذ وفاة والدتي أصبح مدمناً شرهاً على الهروبين. كنت أقدِّم المال لخالتي التي تقيم معه في المنزل لتمدَّه بما يحتاج لاقتناء ما يلزمه من مخدرات، حتى لا يشحذ في الشوارع.

انزعج حسن من حضوري. تبرَّم مني بحجة أنه ينتظر أصدقاء له. توجه إلى المطبخ وبدأ يهيئ غذاء لرفاقه. حضر شاب وفتاة. لم يعيرا اهتماماً لوجودي، ولِما قدِّم لهما من أكل. الفتاة النحيلة شمرت عن ساعدها وحقنته بحقنة الهروبين، بعدها قدمتها لأخي وصديقه. كنت متوارية خلف باب الغرفة. لا أستطيع أن أمنعهم. شرعتُ أمنع نفسي التي غشيها الغثيان من القيء. كابرت حتى لا أسقط. تقيأتُ أمعائي حتى أنني فقدت القدرة على النهوض من وسط ما نثرته من قيءٍ على الأرض.

قررتُ أن أمكث في البيت لعدة أيام في محاولة أن أفعل شيئاً من أجل حسن، من أجل أن أساعده. حنان كانت مسافرة وأنا لا مهمة لديّ. في الليل واجهتُ حسن بضرورة نقله إلى مركز للعلاج أين ما كان ومهما كانت النفقات.

خاطبني في انهزام واستسلام:

- ما ابتليتُ به قدري.

جواب حسن عذبني. فكرتُ بصفعه قبل أن أتراجع. قمتُ وأنا أغلي وأرتعش، وأقسمتُ له أنه عليه أن يتقبل الذهاب إلى العلاج ولو كلفني ذلك حياتي. أحنى رأسه، بكى ولم يجب.

في الليل فتحت لي نفسي ملفاتي. هل سيعود حسن إلى الحياة؟ حسن كان وردة والوردة لا تحيا بعد موتها ولو سقيناها. إنّ ما يحياه حسن هو عقاب لما نقوم به أنا وكريم. أنا أشتغل مع مهربة للمخدرات وأسهِّل عملياتها، إنني كذلك مهرِّبة ومخربة. الكلّ يعرف أن حنان لا تقتصر على تهريب الحشيش إلى الخارج، بل كثيراً ما تفرض عليها عصابات المخدرات أن تبادل قيمة الحشيش بالكوكايين والهروين والعقاقير المهلوسة فتصبح ملزَمَة بترويج بضائعهم داخل المغرب. هامش الربح يكون أكبر ممّا لو استخلصت المال ممّا صدرته.

كريم يدها اليمنى فيما تقوم به. إلى جانب ذلك صار معروفاً عنه أنه يقوم بعمليات التهريب لحسابه. كلنا مساهمون في حالة حسن. امتنع عني النوم رغم أنني استعنت بقرص مهدئ لما كنت أسميه الدواء السحري للاطمئنان.

قررت أن أتدبّر علاج أخي في مصحة خاصة. بدأت الاتصال ببعض المصحات بالرباط والدار البيضاء.

انسحاق نفسي. زرتُ الطبيبة النفسية اشتكيتُ لها ممّا يعذبني. حكيت لها عن إدمان حسن للهروين. تعمَّدت أن أخبرها

أن حالة الرفاهية التي أحياها هي نتيجة انغماسي في دور وسيطة لمروجة كبيرة للمخدرات، ومن تجارة أخي في المخدرات. صارحتها أن أخي يشتغل مع عصابة لا تقتصر على تصدير القنب الهندي إلى الخارج، بل يغتني أفرادها من إيرادات الكوكايين والهروبين المستوردين من خارج البلاد، والنتيجة شباب وأطفال وأخي حسن مدمنون.

إنني أرى ذلك فعلاً محرّماً ومؤذياً لكنني لا أستطيع التوقف، ولا يمكنني أن أوقف أخي حسن عمّا ابتُلي به. اشتكيتُ لها من حرماني العاطفي والجسدي. ختمتُ قولي بأنني أجد نفسي الجلاد والضحية، وأنني أشتهي الموت.

رأت أنني أقسو على نفسي وأحمّلها أكثر من طاقتها. طلبت مني أن أفكر في نفسي.

- لن يحمي نفسك غيرك، عليك أن تفكري في تغيير مسلك حياتك وتغيير عملك، وأن لا تنفي من ذهنك فكرة الزواج.

المرأة في مجتمعنا لا تعيش ما هو ضروري أن يُعاش إلّا عبر الزواج، وإنّ ما تضعه أمامك من معوقات هي أوهام تعذب بها نفسك. لن نستطيع أن نُخرج من الإنسان ملاكاً. الإنسان هو الإنسان. وعلينا أن نصارع ونقاوم لنغلب طباع الخير على طباع الشرّ في قلوبنا.

أمرتني أن أحرص على تناول حبات الدواء المهدِّئة في وقتها، وأراجعها بعد شهر، وإذا ما تفاقمت حالتي المتمثلة في الكراهية القصوى للحياة عليّ أن أناديها وأزورها قبل الموعد المحدد.

- فكري بضرورة تغيير عملك وفي فعل الخير. الأعمال الخيرية تُعيد لنا السعادة المفتَقَدة.

كنت أرغب في الحديث أكثر، لكنها قطعت محاولة استرسالي في الكلام بأن مدَّت يدها إليّ تودعني وهي تكرِّر نصائحها كخطوة أولى للعلاج.

خرجتُ من العيادة وحوار داخلي يفترسني. كيف أكون في سلام مع شقائي. لم أتمِّم رغبتي في الكلام أمامها. كنت أرغب في أن أقول لها إنْ كان كلّ قدر يختار من سينزل عليه، فلا أدري إنْ كان قدري الذي اختارني قد أصاب الاختيار أم أخطأ! لو كان قد نزل قدري هذا على امرأة أخرى فربما تتحمله وتتعايش معه وتحمد اللّه على ما أتاها، قدري لم يَختر من تناسبه، أنا واهنة لا تسعفني هشاشتي في تقبُّله. منذ البداية أظهرت له امتعاضي منه ممّا زاد في تعميق الهوة بيني وبينه وزاد في إضعاف طاقة تحملي.

أنا امرأة تتوارث ما كتب عليها من ضعف واستسلام كباقي نساء مجتمعنا. لسنا دائماً أحراراً في اختيارنا طريق حياتنا.

أغلقت الهاتف.

كان عليّ أن أستمع إلى ما بي. لن يسمعني أحد إن لم تسمعني نفسي. أتناول الدواء في وقته. أحرص على مراقبة حسن حتى لا يتناول جرعات هروبين كبيرة، وأنتظر موعد التحاقه بمصحّة للعلاج.

أراجع نفسي فأجدني بطلة معركة خاسرة لا غنيمة لديّ سوى مال حرام، وأخ شاذ مدمن ومرض وألم. أنثى مهزومة آتية من

تجارب جارحة وأفكار تحفر الأدمغة. ذلك ما جنيته من حربي المقدّسة في مواجهة الحياة. عشتُ محاربة، سلاحي أعصابي وما أزرعه من قوة في ضعفي. نحيا محاربين حتى الموت. أهي الحياة تحتاج إلى مبارزة لتُعاش، ونخرج منتصرين، ونقول إننا جديرون بها وإننا لا نبالي بشططها ما دمنا كشفنا أسرارها. أي سر من أسرارها قد كشفناه؟

مرّ أكثر من أسبوع، وأنا غائبة عن عملي ومشمّرة عن دسائس نفسي وأنفاقها لعلني أجد مسلكاً مريحاً. قررت أن أعلم حنان برغبتي في التوقف عن العمل معها، وأن ألتقي بكريم لأرتب معه علاج حسن. حنان كانت قد أخبرتني بأنها ستسافر إلى إسبانيا لزيارة ابنتها. آخر اتصال لي بأخي كريم كان منذ أكثر من أسبوعين.

في طريقي إلى بلدة القصر الصغير، داخل السيارة رحتُ أقلّب مؤشر المذياع بالراديو بحثاً عن موسيقى تطربني. إحساس بالفرح. قراري بأن أنهي عملي مع حنان، وموافقة حسن على العلاج خلف ذلك. سأبيع شقة وبإضافة مبلغها إلى ما أوفره من مال سأفتح دكاناً لملابس النساء. سأعالج حسن وهكذا سأكفِّر عن خطيئتي. كريم لا دخل لي به، ليعِش حياته كما يرغب.

وصلتُ باب مزرعة حنان. نبّهت الحارس ليفتح لي الباب. انقضّ عليّ شخصان. كسر أحدهما زجاج السيارة بسرعة تدلّ على احترافية عالية وقبل أن أتمكن من الفرار كان الرجل الثاني قد شلَّ

يدي. صرختُ لأثير انتباه حراس المزرعة لكنه أسكتني بضربة قوية على رأسي. سحبني إلى الخارج وأدخلني في سيارة أحضرت للتو.

مدَّ أحدهم عصابة بعنف على عيني. لم يكلّمني أحد من مختطفي وأسئلتي كانت تواجَه بالتعنيف. بعد ما يقارب نصف ساعة من اللف بالسيارة ورأسي محشورة بين فخذي أنزلوني، نزعوا العصابة ورموا بي داخل مكان مظلم. الرياح محمَّلة برائحة المواشي ورائحة البحر.

أصوات بقر تخور وثغاء أغنام. كنت قلب غرفة تحيط بها حظيرة مواشي. هؤلاء ليسوا من رجال الأمن. الاحتجاز قلب الحظائر عملٌ تقوم به عصابات المخدرات في منطقتنا.

لم يطُل الوقت حتى فتح الباب، أشعل مصباح ورمقت الحاج القرع واقفاً على رأسي. عرفته من الصورة التي كانت قد عرضتها عليّ للّا خدوج، ومن خلال الصور التي جمعته مع زوجته حنان. رأس أصلع وجسد قوي وقامة طويلة عريضة. وجه بتعابير غامضة وغضب يرتسم على محياه. جفّ ريقي، ما كنت أتخوّف منه منذ اشتغالي مع حنان وجدت نفسي أواجهه. من دون أن يتكلم أسقطني أرضاً بصفعات متواصلة وكأنه يصفع كيساً. صرخاتي تحوّلت إلى استغاثات بصوت باكٍ متقطع.

نعتني بالقحبة، هدّدني أمام رجاله بأنهم سيغتصبونني جماعياً إن لم أدلّهم على مكان الخزنة الحديدية بفيلا حنان. أقسمتُ أنني لا أعرف، وأنني لست سوى خادمة عندها. لم يعر اهتماماً

لجوابي وكأنه كان يعرفه. أغلقوا عليّ باب الحديد قبل أن يرحلوا. عقلي لا يسعفني لكي أرتب ما يدور وما يقع.

كان ما وقعتُ فيه ورطة بحق. استعدتُ حديث أم حنان عن القرع وخوفها منه رغم وجوده في السجن، واحتياطات زوجته حنان من أن يباغتها يوماً ما. تساءلت أين حنان وأين أخي كريم وماذا فعل الْقُرَعْ بحرس وخدم الفيلا؟

حين أغلق عليّ باب الغرفة خفتُ أن تعود إليّ نوبتي العصبية. خوفي عجَّل بحضور أعراضها. وجدتني أتعرق وأرتعش من خوف رهيب سكن نفسي.

الليل كان شديد الوطء عليّ. عمّني غم قبل أن يفترش ذهني وسواس مرعب. جرّبت ما يهدئ النفس من قراءة للأدعية لعلّ نفسي تسعفني وتهدأ. أغلقتُ عيني وبدأت أدعو اللّه أن يفكّ أوحالي. أوحال تتسرب في الروح كالأشواك وتتهجّم مني عليّ، وتجعل الاعتلال النفسي والجسدي يتمادى. صرخت. ردّ عليّ خوار البقر. أحسستُ ببعض الاطمئنان وكأنّ هناك من يؤنسني. حركات البقر وأصوات اجترارها لما أكلت صارت رسائل اطمئنان. أحياناً نستعين بأشياء لم نكن ندرك قيمتها يوماً لتهدينا أملاً. حاولتُ أن أقنع نفسي بالاستسلام لما هي فيه والنوم، لكن أزيز جحافل البعوض كان عذاباً آخر.

في صباح الغد فُتح الباب. مشاتل نور صغيرة تطل علي. حضر رجلان، وضعا عصابة على عيني وأركباني سيارة. وجدتني أدخل المنزل حيث كنت أعيش خادمة. لا أثر لحنان ولا للحرس ولا للخدم.

أنزلاني إلى قبو الفيلا، أدخلاني إلى مخدع فسيح يحتوي على فراش ومائدة ومطبخ ومرحاض، وثلاجات كبيرة الحجم. لاحظتُ أن المواد الغذائية ما زالت في رفوفها، واكتشفتُ باباً بشباك حديد تمّ بناؤه عند مدخل المخزن، فتحوّل إلى ما يشبه زنزانة واسعة.

كأنني أحيا كابوساً. كيف تمّ كل هذا في أيام قليلة. وأين حنان صاحبة الدار؟ وكيف لم يخبرني أحد من الحراس والخدم؟ أم أنّ الكل كانوا أعواناً للقرع؟ أُم حنان كانت محقّة في تخوّفها الكبير من القرع ما دام كل شيء تغيّر بهذه السرعة.

قبل أن يغلق عليّ الباب دخل القرع وعلامات جنون على تقاسيمه. أقسم أنه سيكون قاتلي إن لم أدلّه سريعاً على مكان الخزنة الحديدية. إنه عنيد ولن يتراجع عن تطبيق تهديده، سأنتظر موتي ما دمتُ لا أعلم بمكان الصندوق.

قبيل المساء انفتح باب القبو بقوة. صريره جعل أسناني تتقزز. استبشرتُ حين رأيت احميدو أحد حراس الفيلا أيام كنت أشتغل مع حنان. مراراً كنا نتبادل الكلام، ومرات أوصلته إلى مدينة المضيق بسيارتي. بفرحٍ تقدّمت نحوه راجية أن يفسِّر لي ما يقع. عرفتُ منه أن الحاج القرع قد تمّ العفو عنه وأنه حضر ليُعاين فيلته وأملاكه، وأنه عليّ أن ألبي طلباته فهو رجل لا يبحث سوى عن ما سرقت منه زوجته حنان، وأنه قادر أن يقتلني كما قتل العديد من قبل دون أن يترك أثراً.

قدّم لي صينية عليها لفافات تحوي مأكولات. قبل أن يغلق

الباب التمستُ منه أن ألتقي بالحاج لأشرح له حالتي. وافقَ بحركة من رأسه وهو يرمي بصورتين أمامي ويُشير عليّ بأن أطّلع عليهما.

لم يكن في حاجة لكي يطلب مني ذلك. ارتميتُ عليهما. الصورة الأولى لجسد امرأة بلباس رياضي مرمية بالأرض على وجهها، ولطخات سوداء على ملابسها. ارتميتُ على الصورة الثانية. كانت صورة مأخوذة لشكل رجل ملقى على الأرض بلباس ملطخ بسائل أسود قد يكون دماً. لم أستطع أن أحدِّد صاحبَي الصورتين وأتأكد إن كانتا لكريم وحنان. الصورتان مأخوذتان عمداً من مكان بعيد ممّا جعل التأكّد من ملامح وهوية الضحيتين مستحيلاً.

عيناي مكسوّتان بالذعر رفعتُ صوتي منادية على احميدو:

- أهما حنان وكريم؟

لم يُجِبني الرجل، وقبل أن أصحو من صدمتي اقترب من الباب، ونطق بهدوء وبصوت هامس:

- الحاج رجل طيب وخطير، إنه قادر على كلّ شيء، أطلعيه على كلّ ما تعرفين قبل فوات الأوان.

أضاف:

- لقد كان باستطاعة الحاج أن يرسل مَن يقتل حنان ويقتل كريم ويقتلك في أيّ لحظة شاء.

صمتَ قبل أن يقول:

- لكنه رغب في أن ينتقم بنفسه.

تقدَّمت نحوه أستعطفه وهو يغادر:

- احميدو أنا لم أكن سوى خادمة، واللّه لا علم لي بالصندوق...

استرسلتُ وقد لمستُ في كلامه بعض الرأفة:

- أنا لم أرتكب أي جرم في حق الحاج... أنا لا ذنب لي.

قبل أن ينصرف رماني بقوله:

- لا تكوني عنيدة مثل أخيك وعشيقته، لقد رميا بنفسهما قلب النار فكيف سينجوان من حرائقها، إنه ثمن الخيانة. أخاف عليك أن تحرقك النار نفسها.

* * *

حضر القرع وبدأ عملية تعنيفي. يكرِّر سؤاله عن الخزنة الحديدية ويضربني. بعدما انهار ممّا بذله من جهد في تعنيفي جلس يمسح عرقه. من المستحيل أن أرفض الاعتراف أمام ما أتعرَّض له من قسوة الضرب. لكنني لا أعرف شيئاً.

بصقَ عليّ وهو يقول:

- لستِ سوى قوّادة وضيعة. أنتِ مَن قوَّدت حنان لأخيك.

أجبته وأنا أبكي:

- واللّه لا علاقة لي بما تدّعي.

عاد يصفعني وهو يسألني لماذا لم أحُلْ بينهما.

- لم يرغبا في أن يسمعا نصائحي وتحذيراتي. نهيتُ أخي

وفكرت بنصح حنان، لكنها ليست بالتي تسمح لي بذلك. فأنا لم أكن سوى خادمة لديها.

ذلك ما اعترفت به وكرَّرته على مسمع القرع، مُقسِمَة بأنني لا أعرف إن كانت حنان قد تركت صندوقاً مخفياً قبل غيابها.

لم تعُد لي من رغبة سوى أن يتوقف الصفع والضرب. أمام ما أعانيه وأعاينه من قسوة اقتنعت بأنه لا محالة أنّ القرع قتل كريماً وحنان وأنه قد رمى بجثتيهما إلى البحر، وأن الصورتين لجثتيهما.

ما يؤلمني أنني سأقتل في سبيل جرم لم أشارك في أسبابه. ساعتها يكون طعم الموت أشدّ مرارة.

عاد القرع ليدخل عليّ ليلاً. رائحة خمر قوية. خيوط من لون أحمر قلب عينيه. علامات اضطراب قوية تبدو عليه. لن تكون سوى علامات حبّ قاتل أو حقد قاتل أو نوبة جنون. ملامحه يعلوها غضب غامر. رأسه الأصلع يشعّ منه احمرار مائل إلى السواد. كان عاري الصدر. وشمٌ لامرأة عارية على ساعده. خوف أم حنان كان مبرراً. وحش بوجه وقامة إنسان.

أين تدفن حنان الخزنة الحديد؟ عاد ليسألني.

أجبتُه كان الأجدى بكَ أن تسأل زوجتك حنان قبل أن تقتلها.

ردّه كان قاسياً. انهال عليّ ككتلة من حجر. رماني على الفراش وبقوة حيوان مفترس امتطاني ومزق ملابسي الداخلية. صفعني. ضاجعني بعنف. لم تنفع محاولاتي وصراخي في أن

أوقفه. وهو يضاجعني كان يدمدم بكلام غير واضح. لحظة اقترابه من الرعشة صرخ باسم حنان. قد تكون استيهامات عنها وعن جسدها جعلته يصرخ باسمها كحيوان يلفظ روحه. أطفأ في أحشائي نار الغيرة من حنان التي تأكله.

- كنت أتمنى لو يشاهدك أخوك وأنا أضاجعك.

ذلك ما قذف به في وجهي قبل أن يضربني على رأسي. رجوته صائحة:

- ارحمني أنا مريضة، قد تأتيني نوبتي المرضية وتكون قاضية عليّ هذه المرة، فقد تصيبني بالجنون أو تقتلني.

خرج دون أن يردّ علي. كان ردّ فعلي نحيباً هستيرياً.

تكوّمت على الفراش. إنني في مواجهة مجنون عنيف. المقرّبون منه يعرفون حبه الجنوني لحنان. أم حنان كانت تحكي لي عن تعلّقه المجنون بابنتها وكيف تزوّجها رغم رفضها.

سنوات السجن العديدة لم تساعده على نسيانها. لو لم يكن يحبّها بكلّ هذا الجنون لكان نَسيها أو على الأقل لَجاهَد لينساها. الرجل يسيطر عليه عشقها ولا يرغب في تناسيها. يُحكى عنه أنه قبل زواجه بها كان يغيّر نساء مرقده الجميلات كلّ ليلة، وعندما تعرَّف على حنان هاجرت عواطفه وكل أحاسيسه ورغباته نحوها. أمها كانت تضحك وتقول ربما صنعت له طلسماً من السحر.

كانت حنان في بداية مشوارها لولوج عالم الاتجار في المخدرات عندما التقت به. هو مَن مهَّد لها الطريق لتؤول إلى ما

آلت إليه. ثروتها الكبيرة حققتها من ثروته وما راكمته عليها، وفي الأخير هجرته حين تمّ اعتقاله. كان الرجل داخل السجن يحترق غيرة عليها، وهي تغيِّر رجال فراشها كما تغيِّر الشراشف وربما كان آخر شرشف لأخي كريم.

يُشاع عن الحاج القرع أنه يلقي بأعدائه قلب البحر. قبل اعتقاله، اختفى أحد منافسيه، وراجت شائعات عن تصفيته بهذه الطريقة. لا شك أنه ألقى بأخي كريم هناك بعدما أرداه قتيلاً. حمل الجثة في الزورق كبَّلها بأثقال حتى لا تطفو وبعد أن وصل إلى حيث الأعماق قام برميها. لست أدري هل يملك القدرة ليتخلص من حنان، من المستبعد أن يقتلها! مَن يدري ربما قتلها ليقتل عشقه لها. العديد من الجرائم عبر التاريخ ارتُكبَت بسبب الحب وفي سبيله. أعماق النفس الإنسانية صعبة على الإدراك، إنها تتغير وقد يكون حقده عليها تغلَّب على ولهه بها وقام بقتلها. قد تكون الصورتان لجثتيهما.

الرجل كان قد اعتقل على إثر توقيف شاحنتين محمّلتين بالحشيش في ميناء طنجة، اعتقال دخل في إطار عملية تضييق الخناق على المهربين من طرف الدولة. حوكم بعشر سنوات وبتعويض مالي ضخم للجمارك. خلال اعتقاله داهمته شكوك في أن تكون زوجته حنان قد بلَّغت عنه.

حنان حصَّنت مقرّ سكناها بأسوار وأسلاك مكهربة وكلاب شرسة وحراس ممّن تثق بهم. لم تكن الأبواب تفتح لأيّ زائر إلّا بعد أن يتمّ إخبارها. بعدما اتخذت كريم خليلاً صارت تأخذ الاحتياط أكثر. العديد من لقاءاتهما كانت تتمّ في مدينة سبتة.

تدّعي أنها تزور المدينة من أجل التنسيق ومتابعة سير أعمالها، فعالم تجارتها في المخدرات تتابعه عيون كثيرة من شرطة ومخبرين ودرك وجمارك، وعيون عصابات منافسة لها، لكن يظهر أنّ عيون رجال القرع اليَقِظة كانت تراقبها قبل هؤلاء.

خمَد قلقي وهرب بي النوم ممّا أنا فيه. اكتشفتُ أن الألم الجسدي يمحو ولو لحين الألم النفسي.

* * *

أبدى القرع كراهية شديدة تجاهي. كان في حاجة إلى أنثى ليخيط بجراحها جراحه التي سبَّبتها له امرأة أخرى. بتعذيبها يفرِّغ ما ألمَّ به من غبن. غيرة شرسة تحضنها نفس مريضة. إنها عادة قابعة في عقول بعض الرجال في مجتمعنا، ضعفهم في مواجهة هزائم عشقهم أو صدّ خيانة عشيقاتهم أو زوجاتهم يدفعهم إلى التوجّه عند عاهرة ليمزِّقوا جسدها ووجهها بالسكاكين، هكذا ينتقمون ممّن خانتهم أو ممّن لم تساير عشقهم ونزواتهم.

مجموعة من الصعاليك بحيِّنا، بعد ليلة من العربدة والجنس مع إحدى بائعات الهوى، خنقوها ودسوا في جهازها التناسلي شظايا زجاج. القرع لن يكون إلّا بمثل وحشية أولئك.

عاد يقتحم القبو. كان الضنى أخذ مني كلّ رغبة في أن أفتح عيني. مدَّ الرجل يده وانتشلني من رقادي.

صفعني وبدأ يعدّ عليّ الأماكن التي كانت تلتجئ إليها حنان مع عشاقها وخاصة مع كريم، فنادق شواطئ تطوان، وحانات

سبتة، وكباريهات طنجة وماربيا بإسبانيا. كان يرتعش غضباً وألماً وهو يعدّ الأماكن. لم يكن يبكي، لكن لم يغب عني أنه كان ينزف في أعماقه.

صرخَ في وجهي بنعوت قدحية ناعتاً إياي بالقحبة التي لا تختلف عن زوجته. كلّ النساء عاهرات وكيدهن عظيم. اشتكى من حنان كيف نزعَت منه قلبه وثروته قبل أن ترمي به وتخونه وتبلِّغ عنه، لتفتح المجال لحريتها ولأهوائها وخياناتها، ولتستحوذ على ما راكَمه من أموال وأملاك. الشيطان لا يواجه إلّا بمثل ما يبثه من قبح في الأرض، حنان هي الشيطان وخادمة الشيطان شيطان.

شدّ وجهي بيده الخشنة مكرِّراً أنني أحضرتُ لها أخي لكونه شاباً وسيماً صغير السن وفحلاً. أبكي وأكرِّر أنني لم أكن سوى خادمة وأخي لم يكن سوى بحار شغَّلته حنان معها ليهرِّب لها الحشيش عبر الزوارق. كرَّرت على سمعه أنه لا ذنب لي سوى أنني رغبتُ في العمل لأساعد أسرتي.

حين لم تفلح توسّلاتي وقسمي في أن أهدّئ من روعه. سردتُ عليه المرات التي أوصلتُ حنان إلى أماكن مشبوهة بالسيارة التي اشترتها لي. عددتُ له بعض الشاليهات والفيلات في بعض الشواطئ. أقسمتُ له أنها لم تثِق فيّ يوماً لتُطلعني على ما كانت تقوم به في تلك الشقق. شرحتُ له كيف كانت تأمرني أن أذهب وأعود بعد مدة زمنية تحدِّدها لأنقلها. مرة طلبَت مني أن لا أعود إلّا في صباح الغد. أمّا عن علاقتها مع كريم فلم أتأكد منها، كما أنني لم أعرف يوماً مكان خزنتها الحديد.

لم تُقنعه اعترافاتي. هدَّدني بالقتل وأسمعني كلاماً ساقطاً. على حين غرّة غيَّر من شدّة لهجته ونطق بصوت تخنقه عبرات:

- حنان مزَّقت قلبي، سرقت أموالي وسلَّمتني للسجن.

رقّ قلبي لحاله، قلبه تقرَّح من حب حنان. كرهتها. قلب الرجل محروق بحبّها، كيف تخونه؟ في شجاعة لستُ متعودة عليها، مرفوقة بكراهية لحنان وبألم غامض انبجس في نفسي، خاطبته بكلام يطفح بالرقة:

- رغم ما يُقال عنك من خبث وما يظهر عليك من شرّ فأنت طيب.

فجأة طغَت عليّ شجاعة، اقتربتُ منه عازمة على تحدٍّ كبير، وخاطبته باسمه:

- لا تترك لسعات الماضي تعذِّبك سواء مع حنان أو مع أمك. النسيان والتجاهل طريق الراحة.

كأنّ الرجل لسع في عقله، شدَّني من خناقي وهو يرتعش:

- مالك وأمي أيتها القحبة؟

لساني زل. تيقنت أنني وقعت في خطأ كبير قد يكون فيه هلاكي. أم حنان كانت قد حكت لي بأن القرع لم يغفر لأمه، منذ أن كان طفلاً صغيراً يرعى عنزة هزيلة، هَجْرُها له ولوالده المُعدَم والتجاؤها إلى عشيق في قرية قريبة. لم يكن العشيق غنياً، كان فقط قادراً على أن يوفّر لها الطعام يومياً، ذلك ما كان يكاد ينعدم في بيت زوجها والد القرع. كان الفقر طاغياً. التجأ القرع وهو في

سنّ مبكرة إلى تهريب الحشيش عبر البحر. اغتنى، لكن حرقة أمه لم تغادره. حرقة تفاقمت بحرقة زوجته حنان.

وهو يقترب مني وعيناه تشعان غضباً. وقبل أن يبدي ردّة فعل نطَقتُ:

- كفاك ما تحمَّلت من طعنات الخيانة والهجر. تزوَّج بي وسترى إخلاصي.

لا يمكننا أن نكون دائماً منطقيين في كلامنا أو في اختياراتنا. ما الذي دفعني أن أخاطبه بالذي خاطبته به. لم أعِ ما قلته إلّا بعد وقت وجيز من النطق به. حماقات. مَن يفهم حماقاتنا نحن النساء؟ ولو أنني لم أجد سبباً معقولاً لقول ذلك، لكنني قلتها. ربما لكي يخلّصني، وربما رقّ قلبي له ورقَّ لحالي وتمنيتُ لو يكون زوجاً لي، فأنا امرأة في حاجة إلى رجل.

واصلتُ متجاهلة عقلي وكأنّ قوة خفيّة تُطلق لساني:

- تزوّج بي أجعلك تنسى حنان وتسعد.

تطلَّع نحوي بنظرات مكتوية بحزن مغلَّف بغضب يهيمن على ملامحه وروحه، رفع يده، مرَّرها على جبينه، نظر إليّ ملياً قبل أن يخرج ويُغلق الباب. وهو يخرج أمر الحارس أن يمدّني بما آكله وأحتاجه.

نأى عني ليلتها الخوف من أن تعاودني نوبة الرهاب. غفوتُ وسرعان ما أخذ بي نوم عميق.

* * *

ما توهَّمته لطفاً منه عليّ في الليلة الماضية تبيَّن لي أنه كان وهماً حين علا أزيز باب الحديد الذي يفصل القبو عن باقي الدار، وأنا أستفيق راغبة في احتساء كأس شاي ساخن. دخل الرجل يجرّ تيساً أسود خلفه. جرَّني من ثوبي، أخرج مدية ضخمة وهو يقول لي، هكذا سيكون موتك.

ظللتُ مرعوبة ومصدومة، والرجل يدور بالتيس بين أركان الفيلا وهو يتمتم بكلام غير واضح، قبل أن يعود به إلى وسط الدار ليُسقطه أرضاً وهو يدمدم ويفصل رأسه عنه. ذبح تيس أسود هو قربان يقدَّم إلى الجن. كان الرجل يمارس بعض التمائم السحرية ليعرف مخبأ الصندوق. حملَ رأس الجدي المقطوع والدماء تقطر منه وخاطبني:

- هكذا سيكون مصيرك إذا لم تُخبريني بمكان الخزنة.

ولولتُ وأقسمت أنني لا أعرف مكان الصندوق ولم أسمع به.

رمى الرأس المقطوع. كأنّ قلبي بلغ حنجرتي من الهلع. لم أستطع الكلام. لم أفقد الوعي كما تخوّفت. كنت وكأنني قد تهيأت للصدمة.

أهو مدخل إلى الجنون؟ هذا الرجل يرغب في أن أفقد عقلي وبعدها يقتلني، يتلذَّذ بذلك، ربما بهذه الطريقة يخفِّف من الحرائق التي أشعلتها حنان في قلبه وخزنتها الحديد في عقله.

قطع الكهرباء عن القبو وغادر المنزل. كادَ قلبي يتوقَّف هلعاً. تسلّطَت عليّ المخاوف والأوهام. مشاتل كثيفة من

الوساوس تزرع في عقلي، أحتاج إلى آلة جرافة لأقتلعها. حاولتُ أن أفرغ ذهني وأرتب انشغالاته، ومن دون أن أتمكن طفَت أوحال عكرة عليّ، ومنعتني من إمكانية ترتيب وإعادة تنظيم ما يعكّرني.

حتى أغالب قلقي وأستجدي نوماً دعوتُ اللّه أن يساعدني، وأنا أفكّر أن القوارير الهشّة أمثالي يستجيب اللّه لدعائها.

* * *

في اليوم الموالي. سمعت رجالاً يدخلون الدار. بدأت معاول الهدم والحفر. طيلة النهار لم تتوقف. هواء مشبَع برائحة التراب. حين فتح الحارس الباب ليزوِّدني بمشروب وقطعة حلوى رمقتُ رخاماً مقتلعاً من فناء الدار وحيطاناً مخرومة. كان البحث والحفر جاريين عن الخزنة الحديد حيث يزعم القرع أنَّ حنان تخبئ بها أموالاً من الأورو والدولار ومجوهرات ثمينة.

حنان لم تكن تستعمل الشيكات في عملياتها لبيع وشراء الحشيش والعقارات. مراراً حملت معها بمعيَّة السائق العديد من رزم الأوراق المالية. مرّات قليلة شاهدتها تبادل ما تقتنيه بالذهب أو بأحجار ألماس حيث كانت كثيراً ما تشكّ فيها فتحملها إلى بائع مجوهرات شهير ليفحصها. القرع يُدرك قيمة ما قد يكون الصندوق يحتويه لهذا يبحث عنه بجنون.

عند اقتراب الليل وقف القرع أمام المدخل الفاصل بين القبو والدرجات المؤدية إلى الطابق السفلي. أطلق موسيقى صاخبة من الغناء الشعبي وانطلق يسكر ويرقص على إيقاع أغنية شعبية.

حُبْكْ انْتِ جَابْنِي بْاللِيلْ وَاشْ هَدَا سْحُورْ دْرْتِيهْ لِيَا.

أغنية حزينة مهيّجة عن الحب ومَواجعه وما يسبِّبه من معاناة لذيذة معذّبة. العاشق لم يجد تفسيراً لحبه الرهيب هذا سوى أنّ المعشوق قد صنع له سحراً.

يرفع صوت الموسيقى، ينهض يرقص قبل أن يرمي بزجاجة الخمر لتتكسّر على الباب الحديد للقبو. لا أنكر أنني استحليتُ سماع الأغاني في البداية ، لقد شغلتني عمّا بي وجعلتني أتناسى فزعي. لا أعرف لِم نشتهي الحب المعذِّب، ونتلذَّذ بعذابات عشقنا!

ليلة زرتُ مرقصاً في مدينة المضيق لأكتشفَ ما كنت أسمعه عن المراقص، وجدتُ رجالاً وعدداً من بائعات الهوى، معظمهنّ جميلات، يرتمون إلى حلبة الرقص حين تنطلق أغنية شعبية بإيقاع راقص تتباكى عن عذابات الغرام . أنا كذلك وجدتُ نفسي أطلق العقال لما يكبّلني، وأرتمي قلب المأخوذين بلوعة الأسى المحبَّب. جلّ الراقصين كانوا يرقصون بعنف، وكأنهم يعملون على إخراج أرواح تسكنهم وتأرجحهم بين الارتماء في أحضان عشقهم أو الرمي به ونسيانه. رقصتُ ليلتها وأنا أقنع نفسي بقوة هذه الموسيقى التي نادتني وجعلتني أنغمس في رقص لا مناص من مواجهة ندائه وصده.

الآن صارت الأصداء الموسيقية الصاخبة نوعاً من العذاب. رأسي كرة ستنفجر. صرختُ متوسّلة القرع بأن يخفض صوت الموسيقى. أخفض الصوت فعمَّ سكون مريب. مع اقتراب الفجر وبينما كنت أستعيد القليل من هدوئي، وأفرغ عقلي ممّا طغى عليه

من فوضى الضجيج هجم القرع علي، نزع ملابسي بعنف. لم يشفع لي توسّلي له. ضاجعني وهو يصفُ في جنون وبكلمات نابية كيفية مضاجعته لحنان قبل أن يشرع في مخاطبتي باسمها. تيقّنت أنني في مواجهة إنسان كَواه جنون غريب. خيانة أغرقته في شذوذ مجنون. تألّمت. لساني كأنه مربوط. لذتُ بالصمت.

* * *

أمامي جلس القرع على كرسي يدخن سيجارة تلو سيجارة، ويتفحّصني بنظرة ذئب. كنت ممزّقة اللباس والجسد والروح قابعة في لجَّة من الرهاب فاقدة أحاسيسي، حرقة اجتاحتني لتسائلني إن كنت المسؤولة عمّا يحصل لي. صرتُ جمرة متَّقدة من الألم والغضب ومحاسبة الذات.

على باب ذهني تتصارع أفكار مُرعبة ومخيفة. مشوار حياتي لا يستحقّ أن يُعاش. في لحظة واحدة نسفتُ ما كنت شيّدته. ما كسبته من أموال يلطخني، يلطخ قلبي. وحل يسري في عروقي يعذبني.

عادة لا نقيِّم حياتنا إلّا عند إحساسنا بالضعف. أسوأ التقييمات أن تقيِّم حياتك وأنت في موقف ضعف. التقييم يجب أن يتمّ ونحن في موقف قوة وانتصار على الحياة، أو على الأقل في حالة توازن معها، أما وأنت خنوع مدمّر فإنك تفتح نافذة تؤدي بك إلى جَلد الروح وتهيئتها لتتهاوى. لا أرغب في أن تهوي نفسي بي، أريد أن أحيا. لو خيّروني الآن بين أن أحيا أو أن أتنازل عن ما تملّكته من مال، لتنازلتُ عن كلّ ما كسبته.

استنفد صبري. اندفعتُ أطلق أشد أنواع السباب الفاسق في حقّ القرع. أصرخ وأدعوه إلى اللّه. صارت كلمات ليست لي تتناثر من فمي وأنا حائرة بين أن أحاول إيقافها أو أدعها تنثال مني لتشفي غليلي. كأنني فقدتُ السيطرة على عقلي لفترة قبل أن أعود إليه فأجد نفسي أهذي. ما الفرق بين الجنون والعقل؟ كأنني قطعتُ ذلك اللجام الذي يلجم العقل كي لا يندلق ويظلّ رأسي بمخ فارغ من دونه. نار تشتعل في جسدي وتكوي رأسي.

استجمعتُ قوتي ومرّرتُ يدي أمسح وجهي ممّا علق به من دم، وخاطبته بين البكاء والألم:

- كيف تتجبر وتتعملق على فتاة ضعيفة؟ ما أنت إلا وضيع وابن عاهرة.

وجدتني أقفز خارج القبو، أندفع بقوة أرتمي على حجر من مخلفات الحفر وأصوبه لرأس القرع. تحرَّك الرجل سريعاً ومال برأسه. ارتمى عليّ ودفعني بعنفٍ نحو الجدار. لم أحسّ حين انفلت مني عقال العقل. ضربتُ رأسي بقوة مع الحائط. كانت محاولة لتحطيم رأسي الذي أتعبني ضناه. شجّ رأسي وسال الدم على وجهي غزيراً واندفع نازلاً على جسدي.

ارتمى عليّ القرع ومنعني من التمادي، حاول إيقاف النزيف، نادى مرافقيه. ألبسوني جلباباً وأنا أتخبَّط وأحاول تمزيقه. ربطوا رأسي بشال. جروني بعنف، عبروا بي بين أكوام حطام الرخام وأخذوني إلى حيث تركن سيارة.

كان القرع يسبّ ويعطي أوامر لم أستطِع معرفة مضامينها.

كنت أتخبَّط وأصرخ. مزَّقت الجلباب ورميت به. ظللتُ شبه عارية. أركبوني عنوة. سديم من السواد تكسره بعض الأضواء الخافتة للطريق. وخزات برد. غابت حرارة جسدي، وبدأ ألم يحفر رأسي وبرد يصفعني.

نوبة الجنون بعدما استبدَّت بي بدأت تتلاشى لتترك المجال لألم جرحي وقشعريرة تجتاحني.

لم تكن مدة الطريق طويلة. توقفت السيارة نزل أحدهم وجرني إلى الخارج. كنت فوق تلّ يُشرف على أضواء كثيرة بعيدة مشعة. وقبل أن أحدِّد مكاني كنت أسقط أرضاً فاقدة الوعي.

استفقتُ على ألم في رأسي، صوت سيارة إسعاف، وأضواء سيارات، ولغو وتأسٍّ ومواساة واستنكار بعض المتجمهرين من حولي.

* * *

يعوم ذهني في وحلٍ أسود يمنعني من استعادة صفائه. أركان الغرفة الواسعة التي حُشرت فيها متسخة. عدّة أسرَّة ترقد عليها أجساد لنساء أشباح. إنني في مستشفى.

طمي يسبح قلب شراييني. صرت كتلة لحم تتخبط من ثقل شرايين تضخّ وتستقبل وحلاً تنزلق معه حصى جارحة. بحرٌ من الصّخب المعذّب ولو أنزلت عليه ترسانة من الخرسانة لسُمع صوته الهادر الساخط الرافض للحياة وللموت.

أتذكَّر. زجاج سميك تنفذ منه أطياف أضواء تتسارع خلف بعضها، وسيارة الإسعاف تنهب الطريق قبل أن تدخل شوارع

المدينة، بداخلها كنت أرتعش فوق محفة وأصداء صفارتها يتفرقع في أذني. أُنزلتُ من السيارة وأُدخلتُ مبنى. رُميَ بي من طرف شخص بمريلة بيضاء ويدين خشنتين داخل غرفة بجدران متّسخة. صفقت خلفي باب حديد صدِئ بصوت مزلزل. حاولتُ أن أتكلم. لم يعُد لي من قوة. أغلق المزلاج.

دم حام يكتسح شراييني. ألم حاد يقسم رأسي ويد تدهن جرحه بدواء سائل. شوكة حقنة تنفُذ داخل ذراعي. لا تطفئ الحقنة من تخبّطي. أراوح ألمي ولا أستطيع عبوره والتخلّص منه. أستسلم، أنتظر من الحقنة أن تطفئني وتحرق إدراكي لعلي أرقد رماداً من دون جمر.

أستفيق على ألم وتعب وكأنني تناولت براميل شراب مُسكِر. حرارة تشوي الجدران. أتعرَّق. غثيان. لا قيء يريحني. منافذ الجسد موحلة.

وأنا أستعيد وعيي كنت كمن يزيح عن ذهني وعيني ركاماً من الغبار. أرفع جفني بأصابعي، أفتح عيني، يصدني لون الجدران، لون أبيض شاحب مائل إلى الاصفرار. السقف ملطّخ ببقع تخفي بياضه. أتقزّز، كيف وصلت الأوحال إلى السقف؟

فظيع أن يتعطّل عضو من جسدنا. جسدي كتلة معطّلة.. أبحث بعيني عن القرع ورجاله. أحاول أن أستغيث. فمي لا يُسعفني للصراخ. نار تنهش حنجرتي، ولا ريق يعيد لها رمق الحياة. طعم وحل لزج، وغياب للإدراك.

* * *

أقترب من استفاقة طائشة. أستفيق. رأسي تؤلمني. عقلي دوامات وفجوات معتمة. رأيت نفسي أطير، دقّقت النظر كانت هناك أجنحة تخترق سقف غرفة المشفى لتحلق في السماء، لكن من دوني.

الجو حرارة مرتفعة. شباك علا الصدأ بياض حديده. دفّتا النافذة التي تُقارب السقف مغلقتان. رائحة العرق والإفرازات وحلٌ آخر يعبُر أنفي.

صباح بشمسٍ واهنة. رغم ما يسكن رأسي من هدير أميز بقليل من الوضوح أجساد مكوّمة على أسرَّة من حولي. لغطٌ يعلو قريباً مني. فطنتُ على إثر نداء خالتي وصوت أخي حسن. لم أكن أعي ما ينطقان به. اكتفيتُ بأن وزّعت عليهما ابتسامتي وأغلقتُ عيني راغبة في أن أنام.

انسداد النافذة القريبة من سقف الغرفة حيث حشرت، أعاد لي ارتباكي المؤلم. ثقل على قلبي كأنني على أبواب جهنم. نوبة الاختناق التي ألمَّت بي حين كان القرع ينكِّل بي تعاود ضربتها. صرخت. انفتح الباب وولجت امرأة بدينة مصحوبة بمساعد. شلَّ الرجل يدي، وحقنتني بحقنة مخدِّرة، معها أتى ألم وخز ذراعي عميقاً. سرى ثقل في جسدي قبل أن يتثاقل نظري، لم أعُد أستطيع أن أحرِّك يدي، استسلمتُ لدموع ثقيلة من عيني قبل أن أغيب عن وعيي على طعمها المالح.

صرير الأبواب. صراخ. خليط من أصوات ناشزة. بالقرب مني يختلط أنين بالضحك.. صوت نسائي يعجن الضحك

بالبكاء. لم أحدِّد إن كان يخرج مني أو من امرأة تشاركني الغرفة.

* * *

كنت أجرّ قدمي في اتجاه المرحاض لأفرغ مثانتي حين انتفضت أمامي فتاة بفم أدرد ووجه مشرط بالسكاكين وشقاء أبدي يرتسم في عينيها. كانت تشير إليّ وتحثّ نزيلات العنبر للاقتراب مني من أجل رؤية عاهرة مجنونة اغتنت من بيع المخدرات القوية لها ولأمثالها من المدمنين. ارتمت عليّ تطالب بإخراجي من العنبر، لم أنتبه حتى وجدتُها تشدّني من شعري وتُسقطني أرضاً، وتغرس أظافرها في وجهي. لحظتها لم أستطع أن أحبس بولي.

أبعَدَتها ممرضة عني. بقوّة أخرجها حارس من العنبر وحملني نحو الفراش. لم أعُد أسمع ما يُثار حولي. ما لم أدركه هو كيف عرفت المرأة أنني كنت أشتغل مع من يتاجر في الحشيش والكوكايين والهروين؟ ربما ذلك ما راجَ بعد حملي للمستشفى. كأنني قلب كابوس. وجوهٌ ليست لمرضى عاديين تقترب مني. تجلّى لي اقتيادي لمستشفى الأمراض النفسية والعقلية. كنت أخاف من هذا الاسم. إذن صرتُ مجنونة، لكن كيف أكون مجنونة وما زلت أتذكّر بعض ما مرّ بي؟ ما زال لدي بعض العقل.

عذاب المدمن يشابه أو يفوق عذابات الجنون. الجنون ليس بالضرورة عذاباً متواصلاً عكس نفاد مفعول الكوكايين والهروين. أنا ساهمتُ بطريقة أو بأخرى في حالات مماثلة من المعاناة.

جنون الإدمان يفتك بالإنسان أكثر من جنون العقل. إنني بينهم أذوق بعض ما يعانون. ندم يسحقني.

مسحتُ دموعي. لم أحقد على الفتاة. إنها ضحية إدمان قاتل. أخي حسن مدمن. تقدّمت امرأة نحوي تهدّئني. تطلّعت إليها، كانت في مثل حالتي مرهقة وجزعة ممّا تَعَنْكَب في عقلها.

حملقتُ في أعين مَن يحيطون بي برعب. أشمّ في عيونهم رائحة الانتقام مني. لا شكّ أنّ هنا رجالاً ونساء أرسلهم الحاج القرع لينتقموا مني. رجلٌ مثل القرع قادر أن يستخدم أي شيء كفيل بأن يخمد من حرقته.

عادت لي نوبة الذعر بقوة، لم أستطع أن أوقف ما هاجمني من ارتجاف وفقدان للتركيز. خجلتُ من نفسي. أسناني تصطكّ. تدثّرت بخوف رهيب وغطّيت وجهي ممّن يتطلعون إليّ من المرضى. على أبواب الصراخ أرتعش.

أحسد المجانين المستسلمين لجنونهم والذين لا يشعرون بالألم. الخوف المزمن يؤدي إلى الجنون. ليته يكون جنوناً يُنسيني تقلبات ولخبطة ذهني، ويمسح من عقلي ما يتخبط فيه كممحاة. نفسي تجعلني أتوقف عند كلّ مراحل حياتي لتحسّسني بالندم على كلّ ما قمتُ به. عدت أتساءل عن دوري فيما وصل إليه حسن وعن مصير كريم.

حضر شاب بوزرة بيضاء تحتضن جسداً ناحلاً، مرفوقاً بحارس. أرغمني الحارس أن أمدّ يدي للحقنة. أبعده الشاب النحيل وظلّ يشدّ يدي بلطف. رغم تشنجي العصبي استطاع

دماغي أن يلتقط كلماته اللطيفة. ناداني باسمي، غيَّر لي الضمادة المُحيطة برأسي، دهنَ مرهماً على جرح وجهي، وطلب مني أن لا أخاف وقال إنّ النوبة ستمرّ بعد قليل، وستأتي منظِّفة لتنظفني. حقنني بحقنة أرغمتني على الهدوء قبل أن أخلد إلى النوم.

* * *

في الهزيع الأخير من الليل هاجَ عقلي بوساوسه، فأوحى لي بأنّ المرأة السمراء ذات الملامح المخيفة التي ترقد على سرير قبالتي ضليعة في الإجرام، وأنها لن تكون سوى مجرمة أرسلها القرع لتخويفي وقتلي. على أثر الضوء الباهت للمصباح الوحيد في العنبر رأيتها تحصي أنفاسي. يؤلمني بشدة جرح رأسي.

نظراتُ المرأة الجاثمة على قلبي مرعبة، تفصِح عن كراهية دفينة. جفناها لا يرجفان حين تحدِّق فيّ بنظرات حادة. ألسنة لهب تتّقد تجاهي، تستهدف عيني. أغطّي وجهي، عينا قطة مسعورة تحاصرني تحت غطائي. أنزع الغطاء عن رأسي، أجدُ عيني المرأة تنتظراني لتفترسني.

رأيتها تباغتني في نومي وتقتلني. هاجمتني النوبة من جديد. رعشة برد قاسٍ من دون برد. وحلٌ من ثلج يسري في عروقي. ناديتُ على الممرّض. في الليل عادة يتجاهل مستخدمو المداومة الليلية نداءات واستغاثات المرضى. كان الليل قد اخترق النهار منذ ساعات طوال ولا مجيب. ستطول نوبة ألمي وعليّ انتظار حلول النهار. المجانين ملهوفون على الحياة أكثر من العقلاء، يرفضون الموت ويتعلقون بالحياة رغم آلامهم، ولو أنّ الحياة تجبَّرت

عليهم. أشباه المجانين أمثالي معذّبون، يستميتون على التشبّث بالحياة رغم عذاباتهم ورغم الاكتئاب الحادّ ورهاب الجنون. أغبط الناس الذين لا يأبهون للحياة وأنوائها كأنّ أفئدتهم من حديد. تمرّ الحياة بمصائبها وكأنها تمرّ بجانبهم وليس على أرواحهم.

أرغمتُ نفسي على الشجاعة. حدجتُ المرأة بنظرات قوية وشتمتها. لم تغيِّر من صرامة نظراتها التي تقذفني بها، لم تتكلم، ولم تحرّك ساكناً. تمثال يؤدي طقوساً روحية تجاهي.

في الصباح حضر الطبيب والممرض النحيف ليتفقّدا حالات المرضى. اقتصر الطبيب على النظر إليّ وأمر الممرض أن يحرص على مناولتي الأدوية في الوقت المحدّد لها. كان الطبيب شخصاً مفتوناً، قليل الكلام، سريع الحركة، متجهماً، نادراً ما تنفرج شفتاه عن ابتسامة. لم أرَه مرّة دون أن تكون سيجارة بين أصابعه أو بين شفتيه. الممرض نحيل ولطيف قسمات الوجه. بعض المريضات كنّ ينادينه سعيد. لا تمّحي الابتسامة من وجه الشاب، رأيتها سمَة لطيبوبة ما.

بعدما أكمَل جولته الصباحية عاد سعيد وأخذ كرسياً وجلس بالقرب من فراشي. استعاد ذهني واقعتي مع الممرض الذي كان يسهر على الحالة الصحية لأم حنان بالعيادة الخاصة، لم أدَع لذهني الفرصة للغوص في ألم الذكرى. وجّهت إلى الشاب كلامي شاكرة قبل أن أسأله على طريقة تحصِّنني من رهاب الجنون، ومن خوفي من أن يراني الناس مجنونة.

هدأني موضحاً أنّ عدم رضاي عن حالتي النفسية، أي عن

مرضي يهيّج لديّ نوبة الذعر، وأنه عليّ أن أقتنع أنني قادرة أن أتقبّل ما أظن أنني لن أتحمّله. النوبة لن تنتفي مني مرة واحدة ولكنها ستكون أخفّ وطأة، قبل أن يُضيف بإرادتك ستشفين منها.

عند منتصف نهار الغد حضر سعيد مرفوقاً برجُلي درك، أخبرني أحدهما أن القرع اعتُقل لارتكابه جرائم في مَن اعتبرهم أعداء له ورفاقاً خانوه عندما كان معتقلاً. سألته بجزع عن مصير أخي كريم وحنان. أخبرني بأنّ القرع لم يعترف بقتلهما وأنه لا أثر لهما، من المحتمل أن يكونا غادرا المغرب واختفيا ما داما مطلوبَين للعدالة. حين سألني أكبرهما سناً إن كنتُ سأعيِّن محامياً ليدافع عني في مواجهة القرع، أجبته أنني لن أتابعه وأنني أرغب في نسيان كلّ ما وقع لي.

* * *

وجدتُ بعض الشفاء حين التحقَت بدرية بالعنبر. مريضة شابة رقيقة التقاطيع. شعر بلون الكستناء، وبشرة قمحية.

فراشها بجانب فراشي. كانت تصرّ أن تقتسم معي ما يحضره أفراد عائلتها وأصدقاؤها من مأكل. مرة رمَت لي بديوان شعر وحين رأت أنني لم أقُم بتفحّصه أخذته مني.

دخولها إلى المشفى كان إثر محاولة انتحار. الضاوية التي تشتغل منظّفة بالمستشفى أخبرتني أنّ الفتاة جُنَّت من كثرة القراءة. لساعات كانت تظلّ ساهية رانية نحو السماء. ونادراً ما تجيب مَن يخاطبها.

في الليل تتطلع إلى نافذة غرفة المستشفى، بعدما تجلس

متدثرة بحزن ثقيل، توجّه عينيها نحو القمر لتمارس ما تسميه عشقاً. ليلة غاب القمر ظلّت متكوّرة على نفسها رافعة رأسها محدِّقة في السماء لساعات تحرس أضواء النجوم البعيدة المنبعثة من قلب الظلام، قبل أن تخاطبني بصوت يتدفّق بالرقة:

- ولو أنّ القمر اندفن في كومة من السحب إلّا أنني ما زلت ألمس توهّجه. إنه في قلبي. أترين كيف يشعّ لمعان النجوم أكثر حين تكون العتمة تلف الدنيا؟

أتملى السماء فأجدها ملتبسة بالضباب. ليلتها كنت رائقة المزاج وظللتُ متتبعة لبدرية وهي معتكفة على شرودها نحو السماء، إلى أن أرغمت على تناول أقراص منومة.

فضول سَكنني لأعرف قصّة مرضها. لكنها لم تُفصح عنها. تدّعي أنها ليست مجنونة وإنما تعاني من وعكة تعبٍ سبَّبها لها عشق الشعر والقمر. لم أفهم قصدها، لكن يوم قالت لي إنّ الصراع بين العقل والخوف من الجنون صراعٌ غير متكافئ وجدتُ في كلامها اتزاناً وحكمة، واسترجعتُ ما بذلته أنا من شجاعة في مواجهة رهابي، وكيف أنني لم أنتصر بعد.

ذات عشية والشمس تميل نحو الغروب وتنحسر عن نافذة العنبر. ونفسي تزيح عنها ثقل آلام الليلة السابقة قامت وجلست على فراشي وكلّمتني:

- أيعجبكِ الشعر؟ أجمل ما فيه أنني أتوازى معه في حيرتي.

تذكرتُ أنني خريجة كلية، فاندفعتُ مجيبة على كلامها: قليلاً.

خجلتُ من نفسي. خلال دراستي تعوّدت على دراسة ما يُتلى عليّ من مواد دراسية ومنها الشعر، لكنني لم أتعلم كيف أتذوّقه.

قبل النوم جلسَت بقربي وشرعَت تقرأ عليَّ قصائد بصوتها الهامس الدافئ. تعابير وجدتُ غموضاً يلفّها. لكنه كلام به نوع من السحر يوازي مفعول تلك العقاقير التي يقدّمها لي الطبيب حين يستبدّ بي القلق.. أحسستُ بإحساس غريب عميق. تُدهشني لذة غموض ما تقرأه لي، وتقلقني أحياناً، وتطرب روحي مرات. شعور غامض يطهّرني دون أن أعرف ممّ يطهّرني وارتخاء بجسدي.

انتشر نور القمر فبدت السماء زاهية. توجَّهت بدرية نحوي ونحو المريضات الممدَّدات على الأسرة وبدأت تُلقي قصيدة. ليست لديّ ذاكرة قوية حتى أسترجع كلماتها. ولم أعرف إن كانت القصيدة من نظمها أم من نظم شاعر متمكِّن. لكنني استطعت أن أتذوّق ما تناثر على سمعي من كلماتها وألخصه في:

أي معنى للسماء في غياب القمر، عند موت القمر تموت النجوم وتبدّد النجوم نجوماً، لا يتجاهل نور القمر إلّا مَن يتعمد العمى...

الشعر لا يلخص. لم تكُن تلقي كلماتها بمثل هذا الجفاف الذي لخَّصته أنا. كان بها عطر يشمه القلب.

وهي تحدِّثني عن القمر كانت مَوجة من كراهية تتكسّر داخلي. كنتُ قد كرهت كلمة القمر منذ زياراتي لأخي حسن وتهكّم السجناء بإطلاق اسم القمر عليه.

ليلتها تطلعت إلى القمر وجدتُه نصلاً من نور يخترق ما يخيم على روحي من ظلام. حتى القمر جعلونا نكرهه. **اكتشفتُ أنني أضعت زمناً من عمري** لم أكن أعِرْه شغفاً، ولم أتدبر تذوّق سحر الشعر.

* * *

بدأ شلال الألم والهدير يخفّ شيئاً فشيئاً عن رأسي. قال لي الطبيب إنني أتماثل للشفاء وخروجي إلى ساحة المستشفى أصبح إلزامياً. ساحة المستشفى يَقسمها سور منخفض. على اليمين مجموعة من النساء نشرنَ آلامهن وإحباطهن وجنونهن تحت الشمس. عجوز بلباسٍ بدوي مزركش بين الحين والآخر تطلق زغاريد مطوّلة... شابة لا تتعب من الكلام عن رضيعها من حمل سفاح رمت به حياً في القمامة... فتاة محجَّبة جميلة لا تفارق يدها بطنها الحامل وهي تشتكي من جنّ متزوّج بها، ومن السحر الذي تضعه لها أمها في الأكل... امرأة يُنادونها بالحاجة فقدت ابنيها إثر غرقهما في البحر عند محاولة الهجرة السرية إلى إسبانيا... نساءٌ أخريات تظهر عليهن علامات جنون حادّة لست متشوّقة لمعرفة أسبابها ودواعيها. حالات تدمي القلب.

على اليسار رجال ساهمون. ربما منشغلون بما يعتمر أذهانهم من أفكار سوداء قاتلة تنهش اطمئنانهم.

بعضهم تظهر عليه أمارات الرعب والفزع، والبعض الآخر يغُوص في بحرٍ اللّه أعلم بأعماقه.

تؤلمني حالة المرضى المتشنّجين الذين تنتابهم حالات

هستيريا أو نوبات رهاب رهيب. بعض المرضى كنت أغبطهم، إنهم سارحون غير مكترثين بما حولهم وكأنهم طلّقوا الحياة وأنواءها.

الفوّال مجنون يتصيد بدرية في الساحة. يجلس قبالتها أمام السور القصير الذي يفصل استراحة الرجال عن النساء أو يتبعها مقترباً منها. كنت أسير بجانبها ذات هدوء حين اقترب منّا فجأة، قاطعها وصاح:

- يا مجنونة القمر عن أيّ نور قمر تتحدثين. القمر حجرٌ يستمدّ نوره من الشمس.

تراقصت ابتسامة على محيّاها اللطيف ونطقت عيناها بنظرة تفيض ذهولاً وعطفاً. ارتمى الفوال على ما تحمله بدرية من أوراق ومزّقها، وقَرَصَ نهدها بقوة حتى آلمها. لم تكتفِ بالبكاء، بل مزّقت ثيابها وانكفأت في فراشها لا ترغب في مغادرته.

أخضَعَ الحراسُ الفوالَ لصعقات كهربائية بقي على إثرها أياماً يتحرك ببطء. كنتُ آخذ حصّة من أشعة الشمس على كرسي حجري حين خرجت بدرية وشاهدت الفوال جالساً دون حركة وربما دون ذهن. أخذت كتاباً كانت تخبئه تحت منامتها وقدَّمته له، وضعه جانباً حيث ظلّ هناك طيلة الليل.

* * *

عاد الرعب يهدم ما بنيته من قوّة المواجهة يوم أُحضِرَت إلى المستشفى مريضة ملفوفة بمريلة بيضاء يكبَّل بها المجانين

الخطرين، وهي تهتف أنها ليست مجنونة رغم أنف زوجها وأمه اللذين يدّعيان مرضها.

جعلني صياحها وتعرّقها الكبير، وارتجاف أطرافها، والهلع الذي يتصبَّب من عينيها وملامحها، أعود إلى هشاشتي النفسية. استوطن الذعر طمأنينتي. دخلتُ في نوبة رعب قوية وحالة هستيريا اضطرّ معها الممرض سعيد إلى حقني بحقنة كبح الهياج.

كانت آخر نوبة ذعر تنهشني داخل المستشفى. حفاظي على تناول الدواء هدأني. استسلمتُ لما أنا فيه، واسترجعتُ نصائح سعيد بأنّه في تقبّل مرضي بعض الشفاء، الخطوة الأولى للعلاج هي تقبّل نوبة الذعر، واعتبارها كنوبة ألم رأس عابرة سترحل عني وسيضمحلّ ألمها. أعجبتني نصيحته حين قال لي إنّ اليأس كأفعى تتربص بالإنسان. نصحني بأن أبعد عني فحيح اليأس.

في الأيام الأخيرة صرتُ أستعذب وجود سعيد بالقرب مني. كدتُ أسأله مرة إن كان متزوجاً أو على علاقة حب مع فتاة ما. كثير من المرضى النفسانيين يتعلقون بمعالجهم. قررتُ أن لا أسأله أسئلة مماثلة وأن أحتفظ بسرّ انجذابي له في قلبي. لحظة انتشاء وأنا أتهيأ للنوم تراءى لي المستشفى إقامة وردية من الأحلام. المرضى بلباس أنيق ينشدون، الرجال ببدلات بيضاء والنساء بفساتين ملونة بألوان الربيع الزاهية. البركة الصغيرة للأوحال التي خلَّفها ماء المطر أصبحت مسبحاً من مياه عطر زرقاء ذهبية. الأشجار مكسوة بخضرة تزهر داخل القلب، والحديقة الجرداء

أزهار وورود، والرائحة مزيج من روائح الجنة، والكل ينشد أصواتاً ملائكية ولا ألم، لا ألم.

اعتبر سعيد أن شهرين من العلاج كافيان لي وأنّ حالتي تحسّنت، وأنني حتماً سأخرج من صدمتي المرضية وأعود إلى طبيعتي وإلى حياتي الاجتماعية. واصلَ وهو يبتسم أن بعض المرضى برهاب الجنون تمّ شفاؤهم من حالتهم لحظة وصولهم إلى مستشفى الأمراض العقلية، ربما وجدوا أنّ حالة الخوف من الجنون أهون بكثير ممّا هو عليه الجنون. قلت له يرعبني الآتي من أيامي مع أخي حسن ومصير أخي كريم وحنان. كأنني لا أرغب في مغادرة المستشفى. طمأنني بأنني سأخرج محمَّلة بطاقة تمكِّنني من مواجهة الآتي والتعايش معه مهما كانت قوته.

أحياناً ننهزم ونفقد حب الحياة، ثم نتعرّض لموقف أو نلتقي بشخص يُعيد لنا ما فقدناه.

حضر الطبيب ليشرف على خروجي ويوقِّع على إذن خروجي، كتبَ لي وصفة دواء مهدئ وآخر ضد الاكتئاب، وهو يوصيني أن لا أتوقّف عن تناول الأدوية إلا بعد استشارته، وينبهني أنني قد أتعرض من جديد لاكتئاب عابر خلال فترة نقاهتي.

ساعة مغادرتي المستشفى مرفوقة بخالتي وأخي حسن، أحضرَت بدرية ديوان شعر، فتحَت حقيبة يدي ووضعَته داخلها وهي تقتلع ابتسامة من محيّاها المنهك، وتمسح دمعة وتوشوش لي:

لا تنسي الشعر... والقمر.

أضاف سعيد وهو يبتسم:

- والشمس والبحر.

كانت أشعة الشمس تضفي وميضاً دافئاً. اقترب سعيد وقَفَ قبالتي وفي عينيه بريقٌ لم أعرف كيف أفسره:

- شمس اليوم رائعة السطوع تغسل الأنفس المكدّرة. ستشفين حين تعتبرين الخوف من الجنون عدواً وصديقاً. لتكن أحلامك أحلاماً بالشفاء، فالعالم قاسٍ من دون أحلام. نوباتك نتيجة احتجاج داخلي على ما عشته وتعيشينه، فجِّري احتجاجك على الملأ ووجِّهيه نحو طريق سليم.

ضغط على أصابعي برفق، لمعَت بعينيه نظرات حالمة، خاطبني:

- احكي حكايتك إنها جديرة بأن تُسمع.

نُشر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة

المملكة المغربية

وزارة الثقافة

ⵜⴰⵎⴰⵡⴰⵙⵜ ⵏ ⵜⵓⵙⵙⵏⴰ

البشير الدامون

حكاية مغربية

اقترب تاريخ زيارتنا لحسن. ثلاثة أشهر وأمي تشكو وهي تعدّ ما سنحمله له. حالتي النفسية بين المدّ والجزر مع الرهاب الخانق الذي أخجل وأخاف أن أحدِّث أحداً عنه...

كان عليّ أن أشتري لحسن بدلة رياضية. أمي رمَت بأمرها عليّ ولم تسألني كيف. عليكِ أن تشتري لأخيكِ بدلة رياضية لائقة ليلبسها في سجنه...

لم تنتظر مني رداً حين واصلت:

– المرأة الذكية تعرف كيف تستخدم أنوثتها للإيقاع بمن يؤدي أضعاف ما ترغب في شرائه.

صُدِمْت. أكانت دعوة صريحة من أمي أن أتعاطى الدعارة أو ما يشبهها لأحصل على ثمن البدلة؟!

كلام أمي هذا ولَّد لديّ أزمة روحية عميقة. ظلَّت كلماتها تلك تعذِّبني طيلة حياتي.

أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/

لوحة الغلاف للفنان هنري ماتيس

المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com